أَبْرَاتٌ

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
٢٠١٧/٩/٤٥٩٤

٨١٣,٩
بردى، هيثم بهنام
أَبْرَاتُ/ هيثم بهنام بردى . ـ عمّان : دار أزمنة للنشروالتوزيع، ٢٠١٧
(١١٣) ص.
ر.ا. ٢٠١٧/٩/٤٥٩٤
الواصفات : القصص العربية/ / العصر الحديث/

* يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

ISBN 978-9957-09-723-3 (ردمك)

أَبْـرَاتُ

هيثم بهنام بردى

الطبعة الأولى : 2018

جميع الحقوق محفوظة بموجب اتفاق ©

أزمنة للنشر والتوزيع
تلفاكس : 5522544
ص.ب: 950252 عمّان 11195
شارع الشريف ناصر بن جميل ، عمارة 55 (الدوحة) ، ط4
info@azminah.net info@azminah.com
Website:http://www.azminah.com

تصميم الغلاف : أزمنة (إلياس فركوح)
لوحة الغلاف: TOMASZ ALEN (هنغاريا)
الإخراج الداخلي : أزمنة (نسرين العجو)

رواية قصيرة NOVELLA

هيثم بهنام بُردى

أَبْرَاتُ

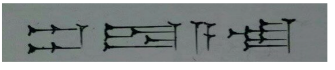

أروقة

أَبْرَاتُ: كلمة أكدية بمعنى «البشرية»
(بحسب الباحث الآثاري آشور ملحم)

أي سحر، وأية سطوة، وأي وميض، يتمثل ويهيمن ويسطع من عينيه اليافعتين، وذراعه اليمنى تمتد نحوي كذراعي صبي يافع يجاهد لالتقاط الأنفاس الأخيرة قبل أن تبتلعه الموجة المنتفضة الغاضبة، وأي انبهار خالجني وأنا أمد كفيّ كبحّار محترف يتكئ على كتف الزورق ثابتاً توازنه بالمجذاف ومرسلاً ذراعه التي ارتَدتْ قوة الفولاذ وجَذْب المغناطيس، وأنا أنتشله من غياب الأمواه، وعيناي غارقتان في لجّة سحر عينيه المبهرتين، هكذا تهيأ لي وأنا أتحسس كفيه في الفسحة المتشكلة من انضمام أصابعي المشعرة الكبيرة الغليظة وهي تحوط بكفه التي ارتكنت كفرخ حسون.... ومن يراني في امتداد السوق العصري المترامي المكتظ بالرفوف والدواليب المليئة بالبضائع والعلب الغذائية والغارقة بالأضواء الساطعة الهاطلة من مصابيح متلولبة في السقف الشاهق، وجسدي العضل الرياضي الفارع ينحني كي لا يجعل هذا الطفل الذي لما يزل في المحطة الأخيرة من المغادرة نحو الربيع السابع من العمر، لا يخطئه قط افتراض بأني أُقاد بفعل قوة مهيمنة تنمو من

باصرة الطفل وسهمها منقاد أنى ما شاء، بحيث يجعلني كالسائر في نومه...

قادني في زحام الأرصفة بدل أن أقوده أنا إلى جناح الأطفال في تلك السوق الكبيرة كي أبتاع له لعبة تنطق وترقص وتنطّنط وتغني ثم تغمض عينيها وتحلّق في إغفاءة تنافس اغفاءة الملائكة في برائتها....، إلى محل أدخله دوماً كل مساء تقريباً وابتاع لي اللوز النيئ الذي أتناول حبات منه لدرء الكولسترول الزاحف كالطمى في شراييني، وضعه البائع في الكيس الذي أحبه والذي يمثل صورة أب يحمل طفلاً على كتفيه، وهو يناوب نظراته بينه وبيني وفي كينونته سؤال أشبه باللغز.

ـ من هذا؟

فزممت شفتيَّ دلالة على عدم استيعابي ما يحصل لي في مقام هذا الحضور الأثيري لأعوام ستة تتجّسد في ناسوت هذا اليافع الصبوح المبتسم، وبعد أن أخرج العملة نفسها التي أخرجها كل ليلة لصاحبي صاحب المحل، قال بنفس لهجتي.

ـ اشترالمثلجات التي تحبها من محل البطريق وتسلّى بها ريثما تصل لبيتك في حي الأغنياء.

وأشار إلى محل يرقص تحت أضواء على الرصيف المقابل تتصدّره لافتة تغتسل برذاذات النيون التي تلامس الرؤوس البيضاء لمجموعة من البطاريق في انتفاضة سرور، فازدادت دهشتي تعاضدها دهشة البائع، وهو يقول بإلحاح وبنبرة ذاهلة.

ـ إنه يتصرف كما تتصرف معي كل مساء.... من يكون؟

فكان جسدي المرتعص وهو ينقاد كطفل تعلم الحبو للتو، الجواب على تساؤله وانشداهه، واستجبت لندهته ونخسته ورغبته في أن يقودني إلى أي مكان يشاء، ومتى ما يشاء، وكنت أتجرجر بخطوي المرتبك في مجهود مضنٍ للتموسق مع خطواته اللدنة النظيمة، وحين أفلحت في ذلك وجدتُ نفسي وحدي معه في خلاء يخلو من الأبنية والشوارع والناس، فقط هو و.... أنا، المسلوب إرادته نحو بؤرة بارقة آمرة تنّث من الأعماق السحيقة للبؤبؤيين البارقين التي تجعلني أسير نبضاتها وشهقاتها.

قلت بصوت استغربت رنّته التي تقترب من رنّة صوت صبي.

ـ أين نحن...؟

ووجدت نفسي في مكان لم أعاينه من قبل، أنا الخبير بالمدينة وأحيائها وأزقتها ومعالمها العمرانية والسياحية..... مكان مدهش، غريب، ساحر، ناعس، رهيف، فردوسي، يتمرجح فيه النسيم ويناغي وجهي بغدوه ورواحه المصحوب بكركرات ناعسة حيية لكائنات لا أراها، ولكني أتحسسها ببصيرتي، كائنات مجنحة يافعة لدنة أقرب إلى نغمة وتر منها إلى لحن شجي، تتحلّق حول ناسوتي في كراديس غاية في السحر والحلاوة، وهي تحاول في اقترابها مني أن تنوس كينونتي المنقادة إلى هذا البهاء وذاك النور الهاطل من العيون الخرافية في ألقها، تظلّلها أجساد مغزلية لطيور لا تعريف أرضي لها، بأرياشها التي

يتماهى فيها الأبيض والأسود في تواشج لا يتصوره التوقع والذهن الباصر، تحيط بي وعلى شعف قمم أغصانها هالات من ضياء بارق، أشجار تتميز فيها التين والنخل والعنب والزيتون، في تناسق رهيف باهر ورؤوسها المطوقة بأسراب طيور خضر تعانق لازورد لا يمكن لملايين السطور أن تلّم بكنهها، وفي الفضاء تصدح في تناغم عجيب أنغام الصنوج والدفوف وهي تلاحق كما البرق تيجاناً من أصوات تراتيل ساحرة تجعل حتى النبض يتوقف عن تردده الرتيب التراتبي، سحر يمتد أمامي حتى ينتهي بعطفة متوهجة تسيّجها أوراد البيبون والقداح، تدرج في ممرها النيسمي شحارير وعنادل وبلابل في تقاطع وتشابك غناءها دعوة ناعسة للوصول الى تلك العطفة – اللغز، الأمل–، فتتخاطف خطاي نحوها في حذر وخشية ورغبة وحب استطلاع، تتبعني خشوف رشيقة لا وصف لجمال عيونها، وتحيط بي من جانبي الطريق طيور السمان والسنونو، وحين وصلت العطفة ومددت رقبتي كاد يغمى عليّ لولا العضد الذي صالب جسمي وأعادني إلى توازني، فاصطدمت عيناي بعينيه، لأجد ولومضة باتساع الرمشة تجّسد ناسوت رجل أعرفه منذ زمن قصي، ربما عاينته في حلم من أحلام الطفولة، ربما صادفني في حشايا زقاق ما في صباي، ربما اصطدم جسده بجسدي في زحام أرصفة مدينتي الزاهية في شبابي، ربما... ربما.. ربما في الرجولة المبكرة والمتأخرة، لا أعلم أين ومتى، المهم في الأمر أن وجه الصبي الذي رافقني من المتجر، وسار معي في أزقة وشوارع المدينة، ويقرأ طواياي ويواسد ذاكرتي في استذكار بعض

شواهد الماضي، السحيق منه والقريب، يتمثل أمامي بهيئة هي تآصر بين طفولة مهيمنة ـ ، ورجولة مهيمنة،... وبعد لحظات دفعتني كفتاه بلطف لتكملة الطريق.... تمثلت نهاية العطفة التي أسرت روحي بروعتها في نيسم أرضه مزدانة بالأوراد، وكلما داست أقدام العابرين أينعت وتصالبت سيقانها وتفتحت تويجاتها وإنبّث شذاها يفغم أنوف الأحياء فتصدح في الفضاء ألحان الطهارة والنقاء والبراءة، فتتلبس النواسيت المنطلقة الى نهايته حيث فم جسر ما رأت عيناي سحراً يضاهي سحره الآخاذ طوال عمري الذي ناف على العقود الأربعة، بسنواته التي تصرمت وأنا أطوف مدن العالم في قاراته الخمس وعاينت عيناي أجمل الجسور والقناطر، بيد إني ما شاهدت هذا البذخ من البهاء قط، ازدادت رغبتي بنهب ما تبقى من الطريق النيسمي كي تطأ روحي أعتاب هذا الجسر الذي تتصادى منه نداءات تقدّد حشّيتي وتجعلها منقادة كالظمآن من بيداء كافرة نحو واحة انداحت أمامه على حين غرة، فتتسابق خلاياه وتتصادم وتتعارك وبغيتها وطء أفاريز الحياة المتدفقة من حوافها، على هذا الديدن سابقت كينونتي كي أضع قدمي اليمنى على حافة الجسر، وحالما تلقفني أشعرني بإحساس فياض من نشوة وسكينة ودّعة وانتشاء فتلفتُّ حولي أتقصى المكان، فكان ما رأته أبصاري يفوق الوصف: نهر صغير ينساب من أقصى الأفق إلى أقصاه في الأفق المقابل، تبّدى تحت الجسر الذي لا قوادم له، بل يبدو وكأنه يطوف بلا ركائز، بلا مساند، في الفضاء الشاسع المترامي، بلا حبال تربطه بأكّرة في الفضاء الحالق، بل هو أقرب إلى بساط أكثر من أي

شيء آخر، وعند نقل خطوي لتلحق بسابقتها لا أشعر بأي اهتزاز فيعاضدني شعوري المتوالد من أعماق نفسي بأني أخوض تجربة حياتية لو وصفتها لأحد لإتهمني، إمّا بأني ممسوس، أو أن خيالي من الاتساع بحيث لا تلّم بشطحاته عشرات الجماجم البشرية، تلك القامة الطفولية اللدنة لرحلتي العجيبة التي أراها تمشي جنبي، بل تحملني على أكفها غير المرئية، ونبرتها بجرسها الأخاذ تجعلني منتشياً فرحاً كرضيع حظى بالحليب اللذيذ المتدفق من حلمة روح أمه.

ـ لا تخف يا صديقي.

ـ أين أنا؟

ـ أنظر تحت الجسر.

أفعل، ومن خارج إرادة ذاتي كدت أمسك بالسياج وأطفر نحو مويجاته مأخوذاً ببذخ وجمال الأسماك التي تلبّط بمرح في سطحه اللامع وأعماقه التي تبز البلور في لمعانه وصفاءه، فيمسكني بذراعه اللدنة وأسمع مناغاته بنبرة أم متدلهة بمحبة وليدها النفيس.

ـ لا تتعجل يا صاح، هذا أول الغيث.... تابع خطواتك الواثقة نحو المكان الذي سيفّك طلاسم تساؤلاتك.

أتملى وجهه وأحاول أن أتذكر هذه الملامح، عصية عليَّ تسلق أسوار الذاكرة، فيفلت التساؤل.

ـ من أنت؟

يبتسم عن أسنان لبنية ناصعة البياض، ثم يزّم شفتيه فتظهر غمازة

وردية على وجنتيه، ويقول بنبرة هي أقرب للأمر منها إلى التحذير.

ـ لا تشتّت ذهنك، وانقل خطاك بتركيز لئّلا يقع المحظور؟

ـ ما هو المحظور؟

ـ الأفضل لك أن تقطع الجسر بحذر وثقة.

إنصعت لأمره، وصرت كلما أرفع قدماً وأضعها في فسحة جديدة من أرضية الجسر يزداد يقيني أنني في استثناء نادر من وضع منفلق من الزمان والمكان، وأنني إما في حلم أو رؤيا، وقطع علي تأملي نبرته الطفولية.

ـ لا يذهبن بك الشطط بعيداً.

فيزداد يقيني أن هذا الطفل ـ الكائن، لا يقرأ أفكاري حسب بل أنه توأم سيامي معها، وأن ذاته تتلقف الفكرة قبل أن أستوعبها أنا، بل ربما أنه يستميت في عراك معنوي مع توأمه أن لا يحشو بها طويتي لئلا أتشوش وأنا منغمر في رحلة لن تتهيأ ربما لابن حواء من قبل ومن بعد، فيزيد يقيني عند قوله.

ـ فقط استمع لي كي تعبر الجسر.

أقفل حواسي الستة عن أية إشارة يبعثها توأمه السيامي، عفواً دماغي.. عن الماهية والكينونة التي تلقفتني كغريق متعلق بقش ألقته نملة، فأمشي بحذر قط وحكمة حية ورغبة المرأة الأولى التي قضمت التفاحة، وانقياد رفيقها المسوس بهيمنة الحالة، وافتقاده لإحساسه بدّعة الفردوس، وأنقل الخطوة إثر الخطوة، وفي الخطوة الأخيرة التي

سلّمتها لدرب قشيبي ينفتح على مكان يصيء فيه ويغّرد فيه ويشدو فيه وينغّم فيه كل ما يدرج ويطمس ويحلّق من خلائق ترّنق نواسيتها بالجمال الطاغي وتهيم أنفاسها في رياض المحبة والدعة والسكينة في أرض وفضاء تعبق بالتسبيح والتنغيم والترتيل، أغلق عيني تهيباً وخشوعاً، وحين أفتحهما أجد نفسي وجهها لوجه مع الصبي نقتعد معاً مصطبة من تشابك الآس وأوراد الحندقوق وشقائق النعمان والبيبون، تحيط بنا من الجانبين والفضاء أجواء لا يمكن لأي فنان تشكيلي أن يلّم بحبة واحدة من بيادرها الخلابة، ولا يقدر أي سارد مهما أوتي من مخيلة أن يتصور قيراطاً صغيراً من لآلئ جمالها الباهر، ولا يستطيع أي شاعر مهما أوتي من قابلية فذة على التّصور أن يحظى بخيال قدر حبة الخردل مما تزخر به من رؤى....

ولا أعلم من أين انتضت كفه سجلاً أزرق اللون، يبرق غلافه ويتخاطف لونه منافساً بهاء لون الورود التي تمخر في عبابها الساجية الناعسة مصطبتنا الفريدة، هذا السجل الخارق بنعومته لم أعاينه قط مذ بدأت رحلتنا العجيبة إلى هذا الأوقيانوس، مدّ الطفل ساعده البلوري ووضعه في حضني، وقال برنة موسيقية خلابة.

ـ أقرأه.

ارتعص جسدي بفعل حزمة من الأحاسيس التي نترت وسلبت طويتي، وارتعشت ركبتاي وأنا ـ أشعر ـ بثقل حياة ضاجة تمور في صفحاته، فتغضن جبيني مستجيباً لمويجات العرق البارد المنبثة من كينونتي الصاغرة الوجلة. وتتالت النبرة الآمرة.

ـ فيه الحل للكثير من الأسرار العصية على ذاكرتك.

وأمام حيرتي لهذا الفهم المتقدم لطفل في هذا العمر، انقدت للرغبة وفتحت الغلاف لتواجهني في صفحته الأولى صورة عتيقة متهرئة الحوافِ وقد أحال توالي الرطوبة والجفاف بعضاً من معالم الوجه الثلاثيني الساهم، بعينيه البارقتين والجبين الناصع الذي يوزّعه إلى شطرين وميض ضياء باهر يبهر قدحة البؤبؤين ويتسامق نحو الشعفة حيث الشعر الفحمي المنسرح الملّمع.... ونبع في نفسي سؤال شق طريقه بسرعة السيول المتصاخبة من أهراء الذاكرة، وطفا مثل غريق يتلفت باحثاً عن نجادة أو قشة.

ـ هذه الصورة سبق وأن رأيتها مراراً وتكراراً.

وعندما أنزلت طرفيَّ نحو حافتها السفلية، تعزّز الذهول والدهشة والرعدة ثلاثياً خضّ كياني وجعله يدور كطواحين الهواء التي تشبه تلك الطواحين التي كنت أتملاها في طفولتي على علب الحلوى المعدنية اتي كنت أتخيلها تدور بهدوء ورّقة في مدى لازوردي تضم بين طياتها خلال دورانها السقوف القرميدية للبيوت المظللة بأشجار السرو والسنديان، يندلح في فضائها أسراب اللقالق المهاجرة متجهة نحو أقصى الصورة حيث بواشق الشجر التي تشكل نهايات الغابات البكر، فالتهمت شفتا باصرتي الاسم والتأريخ بنبرة توائم تماماً عين النبرة في أيام الزمن القديم المنطوي في رباب تاريخي الشخصي، وذلك الفتي الذي ارتدي ناسوته يقف في غرفة الاستقبال في داره العتيقة أتأمل تفاصيل الوجه المشبوب بالشبوة، وأصحو بعد ثانية أو دقيقة أو

ساعة، أو..... قرن، على صوت أمي وهي تقول بنبرة تغالب شآبيب مزن الحزن الفجيع.

ـ يا رب، أبتهل إليك أن تعيده سالماً.

وبعد أن تتملى وجهي المنتفض للتخلص من الصبا نحو آماد المراهقة، تسكب صوتاً أشبه بالترتيل.

ـ أنا موقنة من أنك ستملأ البيت بحضورك الدائم من جديد، في يوم ما، أيها العزيز.

أرفع رأسي وقد اخضلّت عيناي بالدموع فتتقاطع من سطوة النظرة الهاطلة من العينيين الطفلتين، ومن دفء نبرات الشفتين اللدنتين وهما تشدوان:

((ـ ستشفى يا بني، لا تجزع.... هو مجرد تحسس قصبات.

وأدّس منخريّ البضين أسفل الجهة اليسرى من صدره أستجير بنبضات قلبه الرتيبة، ووفادة الهواء النقي من صدري نحو منخري روحي اللذين يستجديان الأوكسجين بهمة يتيم مدقع حظي برغيف خبز حار معمّد بروح الخميرة وقد خرج للتو من التنور، وأتّسمع صوت خطواته الرياضية وهي تنهب الممر المضاء بأنوار خابية نحو فم الردهة الساطع الضياء، ومن ثم ينيمني على الفراش الناصع البياض، ويّسور فمي ومنخريّ بقمع شفاف ينتهي بأنبوب يمتد حتى قنينة حديدية يسّور قمتها قمع يماثل قمع فمي، بَيد أنه يضاعفه مرتين في الحجم، تتراقص في لبه فقاقيع من الهواء التي تتسارع الى حشاياي

الملتهبة المحرومة من رشيش الهواء البارد المنعش الذي يقوّض على الفور أصفاد الضيق فيتحرر صدري من زنازين الاختناق وتنغمر روحي في غيمة ربابية من تيار يعيد لروحي الطفلة سكينتها وتنقاد إلى مواطئ الكرى فأنام وفي عينيّ صورة وجه أب وسيم طيب مبتسم.))

إستجابةً لهبة نسيم منعشة أتلفت جانباً لأجد الصبي ينظر إليّ بعينين ضاحكتين، أهمس لنفسي.

ـ من يكون....؟

وتزداد هالة إشراقة الضحكة على عينيه، ويعاودني السؤال الملحاح: إنه يعرف أشياء عني القاسم المشترك فيها أنا ووالدي، لا يعرفها سوانا أنا... ووالدي!!

ويصدح فضاء الغابة بأصوات متشابكة متكاتفة من ترتيل بعيد بلحن لم تلتقط ذائقتي أعذب منها، ترافقها زغاريد الصنوج، وزغردة الحلقات الفضية الدفوف، ومواويل أصداء صداح الطبول، وأرى من بعيد الأسود تترافق مع الأيائل في تواشج حميمي وألفة حقيقية، والصقور والحمائم تحتفل في الرحاب الفسحة للسهول الممرعة بالخضرة في ترافق أكثر حميمية، وألفة أكثر مصداقية،،، وتترافق وتتلى الصور أمامي في تحطيم مسلّمات وثوابت من خلال ما أراه من أشياء جديدة لا يمكن أن تستوعبه ذائقة ابن آدم سجاه الخالق بالعقل والإدراك.

وحالما تخاطف أمامي كلب ضخم مع هرّ منفوش جنباً لجنب في

مشية ودية رائقة، الكلب يوسوس بجذل ويجاوبه الهر في هرهرة أليفة، حتى سمعت صوتاً يبتدئ من وجودي المتفرد العجيب على مصطبة أكثر عجباً في رفقة طفل هو العجب بجماره، والنبرة التي أعرفها وخبرتها جيداً وانعجنت في روحي وجسدي سرداقاً من سكينة وطمأنينة وأمان، في تنغيم متعانق مع العضدين العضلين لقامة والدي الطامسة في وهدة الذكرى، تضمني الى الكتف الهائل، وكل حواسه ترّنم.

ـ لا تخف يا ولدي الحبيب، إنه لا يؤذي، بل هو مجرد كلب وفيّ وديع....

وغمرتني كمويجات مدّ البحر ترددات تينك النبرة المطمئنة، فأتلفت لأجد عينيّ الصبي ترمقاني بنظرة تماثل تلك النبرة، وبعضدين يمتدان في محاولة دافئة لاحتضاني ومنح الأمان لجسدي المرتعش وعيناي ما انفكتا تلاحقان الكلب المَوَصوص والهر المهرهر، وأذناي لا تسمعان سوى عبارة.

ـ لا تخف يا ولدي الحبيب...

تتسع الدوائر في بحيرة ذاكرتي الراكدة بفعل حصاة الذكرى التي ألقتها صورة الكلب والهر، وسائر الصور المتقاطرةالفنطازية الأخرى بمفهومنا الوضعي، وحين ارتعشت المياه وتشظّت إلى تموجات خفيفة ترسم نهايات تلك الدوائر في حنايا مرساة ذاكرتي المتبلدة، التفتُّ صوبه وسألته.

ـ هل أنت...؟

مد كفه اللدنة ومرر أصابعه البيضاء في تموجات شعري المسترسل ثم جذبني نحوه، فأنقدت إليه انقياد قطعة مسمار ضال إلى المغناطيس، وبنترة لا تناسب عمره أحاط هامتي بساعديه ووضعها على كتفه ثم صار يهدهدني وشفتاه ترنمان ترتيلة إنامة الأطفال بنفس النبرة التي كنت أنام فيها على كتف الأب الذي عانق عربة تقدح ناراً وارتحل صوب تخوم الذكرى وطواياها ومجاهلها. ثم جاءني صوته المنّغم.

ـ سأحكي لك حكاية جديدة لم أحكها لك من قبل.

فأجبته بنفس نبرة الطفل الذي كنته، وفي خاطر مقلتيَّ المغمضتين نفس ملامح الأب اللائط خلف سحب الذكرى، ورنّمت بطوية روح الطفولة المشبعة بالنقاء الطهر.

ـ وإذا نمت قبل أن تكمل الحكاية؟.

لم أشأ أن افتح عيني كي أبقى متمتعاً بالمحبة الباذخة للروح التي تحتضنني، وبنبرة الأب المفتقد الذي وجدته بكليته في جرس صوت الطفل الذي تستضيفني حناياه التي لا حدود لطعمها الزاكي.

ـ أعدك بأنك لن تنم.

فأردد مثلما الأزمنة الخوالي.

ـ هممممم...تبدوالحكاية مثيرة.

وكنت أهيم منتشياً في التهام عسل الحكاية بشهده و.....

لم أفتح مقلتي فحسب، بل أن كل خلية من جسدي صار لها مئات

المقل، تنظر بذهول وحيرة وتساؤل في تفسير حالة التفرد التي وجد جسدي جسده فيها، هذا فضلاً عن الإجهاد الملحوظ للروح وهي تحاول إجلاء حقيقة وضعي الاستثنائي وتجهد في وضع التفسير المنطقي المعقول المقنع لما أنا فيه، وفي طوافها المسعور ما استطاعت ذاكرتي أن تستوعب وتجلو الغموض ما أنا كنت فيه قبل قليل ما أنا عليه الآن... جسد مكدود، متعب، ناعس، مخدّر، ممدّد على مصطبة تحيط بي أكياس ما ابتعت في المساء وهي مرتبة بشكل به ذوق رهيف، رأسي تطرقه معاول تحاول فتح كوة في صلادة التذكر علّ سحابة من الجلاء تمطر دماغي، قميص مفتوح حد السرة وبنطال مفكوك الحزام، وحذاء ملقى بفوضى إزاء القوادم الحديدية اليمنى للمصطبة، وعلى صدري العاري ثمة ثقل لا يستهان به، أنهضت رأسي مشكلاً زاوية قائمة مع رقبتي المتواترة لتعانق عيناي سجلاً تتقافز على متنه حروف متلألئة بارقة مثل نجوم ليلة آبية صافية، مشكلة في تعانقها كلمة واحدة اسمها (خَلَجات)، سحبت نصف جسدي السفلي، وقوّمت نصفه العلوي بعسر بالغ، آزره ألمٌ ثاوٍ في الحوض والظهر والساقين والأضلاع، واستويت جالساً في وضعية القرفصاء، وكرّد فعل لهذا الفعل الخاطف سقط السجل فوق العشب وانفتح على صفحة الصورة، فتسمرت عيناي على ألقها وتلّبستني حالة تتناوبها أحاسيس الانبهار والتشكيك والتصديق والتحنن، وكل رمشة عين تنبجس من عين الوقت المتقاطر نحو تخوم الماضي كانت تفتح في طوية جمجمتي كوّة للتذكر، فنترت جسمي واقفاً ليس على ساقين بل على وتدين أعاضد بصري المؤثث

بالميتاجمالية أرصد الجنان الصادحة حولي بالشدو والتغريد بمجّسات بصرية نابتة من أعماق الروح عن كنه تلك الرؤى التي تشيئت أمامي بعنوانيها الزاهية: الجسر، الغابة، الحيوانات المتآلفة، كراديس العنادل، الكائنات المجنحة، تراتيل الصنوج، ابتهالات الدفوف، الجو الرائق المورّد بالنقاء والطيبة والطفولة..... الطفولة؟؟!!... الطفولة؟، أين الطفل؟، أين الفردوس؟ أين تجليات الصنوج، وتسامي الدفوف؟، من هو الطفل؟.... وفي ترمّض الذاكرة المجهدة اصطدمت عيناي بصورة الرجل المتصقرة على شعف الصفحة، فكدت، بعد ومضة قادحة في كينونتي، أقع من طولي، بعد ان حمّني دفء الإحساس بانجلاء اللغز الساجي كعتمة جهمة على سجية نفسي من خلال ثقب صغير في جدارها الصلد مانحاً الفرصة لضوء خيطي أَجْلَى التيه ونوّر أعطافها، إذ أبصرت للحظة وامضة تلك العينين الطفلتين، وتلك الغمازتين، وذلك الوجه الصافي البيضوي، في الصورة داخل السجل، فصرخت المليارات من نوى خلايا جسدي المكدود.

ـ إنه هو.... طفل الليلة الفائتة.

وحين فركت عينيّ وحدقت في الصورة ثانية، عادت صورة الرجل ولكن بعيني طفل الأمس...!!!، وأنا أتهالك على المصطبة في جلسة هائلة هائجة كان رد فعلها لدرء تحطم بنيانها، صوت طقطقة مفاصلها بصوت مفاجئ جعل العصافيراللابدة على قمم أغصان الأشجار المحيطة بها وهي تنتظر انجلاء الشفق التام، تطير فزعة في السماء الرصاصية قبل ميقاتها، ومخلوقٌ ما في العشب المتقصف بسبب

الظمأ تتسارع خطاه مبتعداً، فأغمضت ذاتي بحثاً عن وضعي المضبب النادر، فتوالت الاستنتاجات والأجوبة والإشارات والإيماضات إلى ذاكرتي تسجّل دقائق مغامرتي الفريدة التي لو قصصتها على زوجتي وأولادي، فضلاً عن أصدقائي الخلص، ومعارفي الطيبين، لنصحوني باستشارة طبيب اختصاص بالأمراض العقلية، فقررت أن احتفظ بسري لشخصي، وأن أغبط نفسي في كل ما رأت، غبطة سلفي الخالد الذكر (شانقبا إيمورو ـ الذي رأى كل شيء)، بكل تفاصيل ليلة متفردة خارجة عن كل النظم المنطقية والمفترضة والمتخيلة... الخ، وساعدت مخيلتي بترتيب واعادة بناء ذاتها والتلذّذ الروحي بما اكتشفت، وحين هجعت روحي واستلذت في فراديس الدعة والهدوء نهضت ماسكاً زمام الجسد والروح أستمكن المكان لأجلوه بكل دقة،،، ولم يطل بي الأمر وأنا أعاين مدخنة البناية المهجورة التي كانت فيما سبق، منذ زمن الطفولة البعيد، مطعماً خاصاً بسواق القطارات والعاملين في محطة سكك الحديد، وإنني الآن وأنا أعوم في طيات شعور حوريات الفجر الفضية، أجلس على المصطبة عينها التي كنت أجلس عليها أتفكر في إيجاد إجابة لما بعد الاستفهام التي وسمت فيها حياتي وساعات الأم المترعة بالرحيل الوشيك القادم، والتي تبتدئ بسطر جديد يفتح مغاليق أحداث ذلك الغياب الممّض لعمود الخيمة وأنفاسه التي كانت المتنفس من خلاله يطل فيها البيت ومن يسكن في حناياه إلى مباهج الدقائق الآتية من عمق الماضي والمرتحلة إلى أفق المستقبل، ولكن الشيء الذي حدث لنا أن الدقائق توقفت مذ أزّف موعد مجيئه ولم يجيء، وبتوالي

السنين صار طعم الانتظار علقماً، وحتى قبل أسبوع كنت أخّيم على خشبها المتهالك في الغسق أتقصى كنه المصير الذي آل إليه الرجل الذي كان أبي، ولم يرحل من كوى دخيلتي كحضور مؤثث بالثراء لا يفارق مخيلة الطفل الذي كان يتساءل بذهول: ما هي الحرب...؟، والذي اكتشف في الشباب المبكر مدى بشاعتها، والذي يفكر في الأماسي عن ملامح الدمى الحمقاء التي تخترعها، وحين رحل الأب الذي في المخيلة والوجدان والكينونة وما عاد، وجعل نسيجه الحياتي المغزول من زوجة برهنت أن المحبة يرسمها الفعل الحياتي الدافق المنعجن فيما بين الضلوع بطحين الوفاء، وليس ولولة وبكاء. وطفل في الرابعة من العمر بقي كلما تقدم في العمر خطوة يرى أمه بتلك الخصال التي لكثرة ما قرأ من وفاء الأزواج لم يماثلها أحد قط، يتجذر في كينونة الأم كتوأم لا ينفصم، يحاول أن يبتهل إلى الرب أن يجلي له مصيره، وها أندا في مكاني الأثيري النادر الذي ينضح بكل أمائر الوحشة والعتق تنجلي لي الأشياء في رؤيا من الأخيلات العابرة للمنطق والمخيلة، وإن هذا السجل المفتوح على صورة والدي المصلوبة في متن حائط غرفة الاستقبال والتي اقتنعت أمي بعد عقدين ونيّف من السنين على فقده أن تؤطرها بشريط أبيض، على خلاف العادة التي سنت بها الممارسات المجتمعية بهذا الخصوص، والتي كانت تجيب كل سائل عن المغزى، إنه هناك..... هناك، والملائكة قلوبهم بيضاء، فكان السائل يسكت على مضض ويزداد توقيره لهذه الروح السامية، ولم تغب او تكلّ، كل يوم حالما يدخل أول شعاع يناغي ويتناغم مع ذلك الجبين المضاء في

الصورة من تنظيف زجاج الصورة، وتقف أمام وجهه تتأمله لوهلة طويلة ثم تخرج من الغرفة معانقة دموعها المدرارة المتهاطلة على خديها الشائخين، فأحبس دموعي من مقلتيَّ لتنهمر في عينيّ الخافق بتبتل وتدله بين ضلوعي. مددتُ أصابعاً راعفة، راجفة، خائفة، وأمسكت السجل بكفيّ وتطلعت في الصورة بشبوة بنوية دافقة، فتهيأ لي أن صوتاً ما، يأمرني بقوله .

ـ أقلب أوراق السجل، واقرأ ما دونته أيام الجوائح.

ترددت للحظة قصيرة معللاً نفسي بأن الظلام مخيم، ولكن عرائس الشفق فتحت أهدابها فانثال الضياء حولي فبدوت مثل ممثل في مسرح سلطت عليه الأضواء كي يجّسد حالة حياتية، فمددت سبابةوإبهام متفقات على تبادل الدور فتمددت السبابة خلف صفحة الصورة واندلح الابهام على سطحها الأبيض، وقلبت الصفحةفامتدت أمامي صفحة جديدة تكلّل هامتها وبخط كوفي جميل كلمة واحدة حسب (حب)، فكرت ملياً بتشفيرات الكلمة وأيقنت أنني سأبحر في فيوض روح تواقةللوصول إلى يوتوبيا المحبة، في رحلة شاقة عبر جبال الكراهية، وتلال الحقد، وغابات القبح، نحو المنارة التي تحنو على سفينة أعلامها تنافس ندائف الثلوج الناثة من سماء عذراء في شفافيتها وعذريتها وصفاءها، وانكببت ألتهم الصفحات واحدة إثر الأخرى.....

ذات تبحث عن يوتوبيا

الصفحة رقم 1:

بالتأكيد لو وقع هذا السجل بيد العسس وما أكثرهم، واطلعّوا على الخلجات التي تسكنني أناء الليل وأطراف النهار، وحياتي موزعة ما بين إجازة أمدها أسبوع ورديفتها التي تتطابق معها وبينهما تتمدد ثلاثون نهاراً وإحدى وثلاثون ليلة، مشوبة بالترقب والحذر والمراقبة، وغرفتي مطمورة بين سنن وتجعدات الصخور العلوية للجبل في تمويه وإخفاء لا تستطيع النواظيرالمتطورة أن تكشفها، لو حدث هذا وأكتشف العسس بعيونهم التي تباهى وتماري العيون الإلكترونية لتينك النواظير، لقاموا بنزع الحياة من روحي بإطلاقة مشفوعة بقانون عسكري وبتهمة جاهزة، ولكني هيئت لها مكمناً لا يخطر على بال بعد أن أتمم ما تنثال من وجداني من أحاسيس ورؤى وتكهنات، وأدّون في صفحاته بعضاً من أهم ما أعيشه وحيداً وأنا أسامر شعفة الجبل وأذيال الرباب وعيون الضباء والضباع والضب.. وأنا مطمئن تماماً بأن هذا السجل سيبقى في حرز حريز في مخبأه المحصّن.

الصفحة رقم 2:

في بحثي الدؤوب في بطون الكتب والدوريات الأسبوعية والشهرية والفصلية التي تعج بها أرفف غرفة الرصد العالية، وفي صندوق العتاد الأخضر المزركش بالأحرف الإنكليزية والروسية وفي العلب الكارتونية المصفوفة تحت السرير، استللت بعض الجمل التي تنحاز نحو النقاء والسكينة والسلام وتقف على الضد من الرياء والشر والخيانة والحروب، فكانت حصيلتي على هذه الصفحة الأقوال التالية:

ـ يقول الثائر نيلسون مانديلا: (ليس حراً من يُهان أمامه إنسان ولا يشعر بالإهانة).

ـ ويقول الثائر تشي جيفارا: (إذا فُرضت على الإنسان ظروف غير إنسانية ولم يتمرد، سيفقد إنسانيته شيئاً فشيئاً).

ـ ويقول الأديب والمفكر اللبناني جبران خليل جبران: (لا تقاوم الشر بالشر، لأن المقاومة تغّذي الشر وتزيده قوة، وينتقم لنفسه غير الضعيف. أما الأقوياء بالروح، فإنهم يسامحون، ولمن تقع عليه الأذية شرفٌ سامٍ بصفحه وسماحه).

ـ ويقول الروائي الروسي الفذ ليو تولستوي: (إن الحرب التي تشنّها الدولة تفسد الناس في عام واحد أكثر مما تفسدهم ملايين جرائم النهب والقتل التي يرتكبها الأفراد ملايين السنين).

ـ ويقول الشاعر الفرنسي فرانسوا فينلون: (كل الحروب هي حروب أهلية، لأن جميع البشر أخوة).

ـ ويقول الكاتب الروماني وخطيبها الشهير شيشرون: (في الحرب تصمت القوانين).

ـ ويقول العالم ألبرت إينشتاين: (الحرب... كم هي مهينة وحقيرة! أنا أُفضّل أن أُمزّق لأشلاء على أن أشارك في عمل خسيس كهذا، إنه اعتقادي الراسخ والمتين بأن القتل تحت ستار الحرب ليس إلاّ جريمة قتل متعمدة).

ـ ويقول الشاعر والروائي ابراهيم نصرالله: (إن أسوأ فكرة خطرت للإنسان أن يكون بطلاً في الحرب، رغم ان هناك ألف مكان آخر يمكن أن يكون بطلاً حقيقياً فيها).

ـ ويقول المستشرق الإنكليزي وليام هوك: (يوم الحرب هو يوم الحصاد بالنسبة للشيطان).

ـ ويقول الفيلسوف والمفكر الفرنسي جان بول ساتر : (يبدأ الحرب الأغنياء ويموت فيها الفقراء).

ـ ويقول الفيلسوف البريطاني برتراند راسل: (الحرب لا تحدد من هو صاحب الحق وإنما تحدد من تبقى).

ـ ويقول السناتور الأمريكي تشارلز سمنر الذي ساهم بتحرير العبيد في الحرب الأهلية الأمريكية:(أعطوني المال الذي تم انفاقه على الحروب وسوف أكسو كل طفل في العالم بملابس من التي يفتخر بها الملوك والملكات، سأبني مدرسة في كل وادٍ على كامل الأرض، وسأتوّج كل تلة بمكان عبادةٍ مكرّسٍ للسلام.).

الصفحة رقم 3:

هذه الحزورة، او اللعبة اللغوية التي كنا نختبر ذكاء بعضنا البعض ونحن نجتاز مثلما يطفر الغزال نيسماً مائياً شكلته مياه الأمطار في الحقول المترعة بالحياة، مرحلة الابتدائية نحو المتوسطة، حالنا حال أغلب المدارس التي كانت تنطق بلغة الضاد، كظاهرة جديدة ممتعة تثار بها المخيلات في تشكيل معانٍ من أجزاء كلمة واحدة، وكنا نجترحها نحن الصحب وخلان الصبا المُشرق في أعطافنا كشمس الشفق التي تشحن الكون بأمائر الدفء والتهيؤ لتشكل جسدي جديد مغاير، فمنا ـ بعد أن أشرفنا على فضاءات الرجولة ـ، حسم حياته القابلة حسب رؤاه، فصاروا في وضائف شتى وأعمال شتى ومناصب شتى، وأيضاً هناك منا ومن شاكلتنا على مد البصر في الكور والضياع والمدن من صاروا رجال أعمال مرموقين، والأقل حظاً أسس شركة (ذ.م.م) ومعنى هذه التشكيلة، عرفتها بعد حين أنها تعني: ذات دخل محدود، والبعض الآخر، بل الكثير اشتغل في البقالة او العتالة أو حارساً لمدرسة أو مستوصف.... إلخ، وهناك، وهم قلة، ممن كانوا شطراً واحداً منها فقط وتشير إلى تقويض وتدمير نياط الحياة تجاه نقيضها، تفننوا في

اجتراح الحروب وتغذية أوارها في بقاع شتى من الأرض، وتمترسوا خلف أسوارها وتمرسوا في تبرير ديمومتها،، والقلة القليلة ممن تّشرب بالعلم والفكر استطاعوا وبيسر حلّها وتفتيت أحرفها التي تشكلت بهذه الصيغة المميتة إلى معانٍ جديدة سامية إنسانية تدعو إلى المحبة والتسامح والتحرر، بيد أن النفس التي تنحاز إلى السوء والسوءة هي التي غلبت في المطاف والمآل والنتيجة، فالعلماء حاولوا فك وامحاء هذا التواشج الشرير لحروفها الثلاث حين آصروا بين كل كلمتين طاردين الثالثة خارج حسابات المنطق استنبطوا معانٍ لو تمسك بها العالم لكنا نعيش في يوتوبيا دائمة.

فالكلمة التي تتكون من ثلاثة أحرف لو جمعت الحرف الأول والثاني لنتج عنها سمة من سمات الصيف، وما تفتقد إليه المجتمعات الصقيعية، فكان حلّها أيسر مما هو متوقع وكانت (=) كلمة «حَر»، وإذا أضفنا إليه علامة (الضمة) فوق الحاء و علامة (التشديد) فوق حرف الراء لنتج عنها كلمة تقدم فيها الشعوب المقهورة الغالي والنفيس من الأرواح والمال من أجلها فكان الجواب (=) كلمة (حُرّ).

ولو جمعنا الحرف الثاني والثالث لتسيد الكون لفظ الجلالة، فوضع التلاميذ النجباء كلمة (رَب).

ولو جمعت الحرف الأول «بالضمة» والثالث لكانت النتيجة أحلى أرق وشيجة تربط بين القلوب، فلم يجد التلاميذ النبهاء عناء في كتابة كلمة (حُب)، وإن حُركت الحاء بالفتحة لنتجت عنها ما يوضع تحت

التراب بانتظار المطر لتورق وتسنبل وتثمر ما يقوت البشر والحيوان معاً ويديم معادلة الحياة (حَب).

وبعدها..... يشكلون الحروف الثلاثة بين قوسين منتشيين بحل الحزورة (حَربْ) غير مدركين أن النتيجة التي توصوا إليها ستحرق شواظها كينونة العالم الذين يعيشون في حشاياه..

تباً للحرب.

تباً لمن يضرمها ويديمها ويحرص على أبديتها..

تباً لتجار الحرب والحروب...

الصفحة رقم 7:

ثمة أشياء تبقى لصيقة الذاكرة لن تزول بل تذهب مع الذاكرة المتوحدة بها نحو المآل الحتمي المطلق، وفي حياتي ثمة الكثير من هذه الأشياء، بقيت مخزونة في أهراء الدماغ، لن تزول إلاّ بزواله، ولعل ما أدونه أدناه، ضمن تجربة حياتية فيصل في حياتي هي أكثرها تأثيراً في كينونتي وماهيتي، ولكثرة ما ترافقني في حلّي وترحالي، وخوفاً من أن تنزاح من ذاتي بفعل خارجي مدّمر يصيب جمجمتي تجعلني فاقداً للذاكرة دفعتني أن أدوّنها على الورق..... وفعلت ذلك.

وكانت هكذا.....

سُخام(*)

الآن:

الآن....

أجد نفسي محشوراً صحبة أجساد تتسطّح بالكاكي وتلتحف الترقب وتتأمل الآتي الغامض الذي يسبق سيارة «الزيل» نحو الأفق،

والعيون تكتنز الذكريات وتغلق أهدابها على عوالم سرية يتمازج فيها شهد الماضي بمراره الساعات الآتية المتربصة بنا خلف الغسق الغائص في أعطاف الليل الحزين القابل، الذي يهب حزنه للوجوه المصلوبة التي يقف بعضها متمسكاً بالسياج الحديدي للزيل، ويجلس آخرون على أرضيته تتشرب أرواحهم صقيع الأيام الآتية، فيما لاذ آخرون برداء النوم، والسيارة تشكل مع من سبقها ومن يليها هيكل أفعى أو حشرة «أم أربع وأربعين» أو دودة، أو تنين، في مآقي الأصيل المغادر وهي تتقاطر في موكب جنائزي نحو الأفق المفّخخ بالمجهول المشبع بالخوف والترقب.

ما عادت قدماي تحملاني فانتبذ زاوية «البودي»، أضع الحقيبة الجلدية على الأرض الحديدية وافترش برودة الأرضية المتعاهدة مع البرودة الهاطلة من الفضاء الثاكل بحزنه على فقدانه القرص البرتقالي للشمس الآفلة، الذي دوماً عندما كنت أراه في الأيام الخوالي كنت أتطير من فقداني ليوم وإطلالة سجاف ليلٍ جديدٍ يذكرني بمدى جدوى تصرّم يوم من عمري دون ثمر نافع، فكنت أدخل إلى البيت وألوذ بالسقف كي اتحاشى النظر إليه وهو ينبئني بزوال يوم آخر من رحلة حياة يوليوسيوسية، ما خلا هذا اليوم فأني أنظر إليه بجرأة فتاة متدلهة بكيوبيد وهو يوجه سهامه النافذة إلى عمق حشايا فؤادها فتجيل النظر في سيمائه بجرأة خادرة تتهيأ لولوج حياة العشق اللذيذ، وأنا الآن مصّر إلى استبصار كنه القرص المغادر علّني أرى في أعطافه مآل ما ينتظرنا من مصير غامض، وبعد أن أعيتني الحيلة في

الغور والاستشفاف وأفلت مني الخيط الذي كان يوصلني بالقرص وتهاوى كما تتهاوى الطائرة الورقية من عنان السماء بعد أن يتقطع الخيط، غضضت نظري لتصطدم عيناي لائذة بأل.. «بساطيل» العتيقة المتهرئة للجنود المحشورين، عالمي الأثيري الذي حشرت فيه قبل ساعة وأنا أتربع الأرضية وحدود جسدي مسورّة بغابة سوداء من الأحذية الجلدية تصدمني زرافاتاً ووحداناً كلما تمايلت السيارة بفعل عارض أو «طسّة» فتلامس الجلود المحببة ساعديّ وبطني ووجهي، أمد يدي نحو جيب «قمصلتي» الجانبي وأخرج مظروفاً مدعوكاً وأستل من جيبي الآخر ورقة من دفتر الهواتف، أشهر القلم وأنشأ أكتب.

((زوجتي الغالية

أكتب إليك هذه الكلمات اليسيرة و«الزيل» ينقلنا هناك.... حيث الحرب الضروس.... لا نعرف ما ينتظرنا، أدع لنا بالسلامة واللقاء من جديد..... قبلاتي لأمي الغالية))

أطوي الورقة بعناية وأضعها في أحشاء المظروف وألصقه، ثم أكتب عنوان مدينتي الكامل على ظهره، أُنهض جسدي وأُصالب قدميَّ فتتصدر هامتي الكثير من الهامات، تقتحم أنظاري أسلاك الكهرباء وهي تتصاغر راكضة نحو الأفق الآخر، الأفق الأمل، جنة عدن التي نُطرد منها نحو تخوم الجحيم، وأعمدة الكهرباء تجاور في محبة باذخة أسطح المدينة الصغيرة الهاجعة وهي تتسمع لحكايات الغروب وبقايا

الأطيار تتموضع في أفنان الأشجار المنتشرة بين بيوتها وأزقتها المبلطة النظيفة، ثم أقرأ على ناصية الشارع قطعة: (الحدود 30 كيلومتر)، أرفع ذراعي إلى أقصى مدى وأقذف المظروف، يتطاير في الفضاء ثم يستقر بهدوء على الجانب الأيمن من الشارع ويستقر في فيء شجرة أثل ، أهمس لنفسي.

- ربما....؟!.

*

وبَعدَ...

وبَعدَ شهرين، ربما كان حلماً أن أعود بعد ما عاينت عيناي بما لم يخطر في بالي قط مما شاهدت من أحداث فضيعة، وكيف يتحول هذا الآدمي الذي حَباه الرب ومّيزه عن سائر المخلوقات الأخرى بنعمة العقل، كيف جيّر هذه الهبة ووظفها من أجل اجتراح الشر، وأقذرها اجتراح الحروب، كيف يتأتى لإنسان أن يقتل آخر لا يعرفه ولم يره من قبل، ولم يكلمه قط، ولكنه الآن يرتدي ثياباً تمهره وتوسمه بأنه عدو دون الغوص في كنه هذا الآدمي الذي ربما يحمل في قلبه من مشاعر صافية دافقة بالإنسانية تجعل النهارات والليالي، الأصياف والشواتي، العقود والقرون .... تنطق ببراءته التي تنافس وتّبز براءة الأطفال، أن يتحزم برصاص يجعله يرتكب فعل القتل، بأمر من أيادٍ خفية لا هم لها سوى إدامة هذا الفعل مهما كلف الأمر.

ولا زلت أسير كالمغنط في شوارع مدينتي التي خبرت كل بلاطات أرصفتها ووجهتي بيتي الذي غبت عنه 1440 ساعة، أي ما يعادل 86400 دقيقة، وبالحصيلة النهائية ما يعادل 5184000 ثانية، كل ثانية من هذه الثواني التي كانت تُزهق فيها أرواح العديد من الأبرياء، لو وظّفها أبن آدم لخدمة البشرية لكان العالم في حال يناقض تماماً العالم الذي صوره وشّيده لنا الأشرار والقتلة وتجار الحروب.

أقف عند محل المثلجات، يخرج صديقي والدهشة تُسّور عينيه، يعانقني، ويسأل.

ـ هل كنت هناك؟

ـ نعم.

يمسكني من يدي ويدخلني المحل، أجلس على كرسيّ الأثيري ثم يضع قدحاً محززاً بيضوياً من البوظة التي أحبها ويجلس قبالتي يتأملني.

ـ مد يدك...

وغب صمت.

ـ إنها الطعم المفضل لديك.

أتملى هيئتي في عين المرآة التي كنت في الأيام الخوالي أضع فيها بعد خروجي من البيت اللمسات الأخيرة لشياكتي، فأرى، الآن، وجهي

الأشعث المذهول الممصوص، وملابسي العتيقة المدعوكة بفعل عرق وغبار المعارك....

تلقفني الرصيف من جديد دون أن أمسّ بوظتي المفضلة وأنبس ببنت شفة، وعند نهاية الشارع وعطفته لمحت أمي تقتعد عتبة الباب، نهضت حالما لمحتني وهي تصرخ بصوت به كل ألوان الدنيا من فرح وجزع ولهفة وأمومة.

ـ ولدي... ولدي..... ولدي.

جعلت الجيران يخرجون من بيوتهم، وقبل أن تتهاوى ساقطة ركضتُ إليها وتلقفتها، قبّلت كل خلية من خلايا وجهي وهي ترتجف من الفرح، رجعت إلى أيام الطفولة البعيدة وصرت أتنشق الأمومة التي تمنح الطيبة بلا حدود، فأخضلت عيناي بالدمع الساخن النقي، وولدت من جديد في جنة عدن وأنا أتشرب الطيبة والصفاء، وأمي تحتضنني كنبع لا ينضب حنانه عن التدفق، وهي تلهج.

ـ الحرب كافرة يا ولدي.

ثم تمسك وجهي بين كفيها الموشومين،وتلهج.

ـ الحمد لله على سلامتك يا كبدي.

أبعدت يديها بلطف وقلت.

ـ لم أذهب للحرب يا أماه.

أجابني صوت أعرف كل سكناته، كيف لا وهو صوت الزوجة والحبيبة وأم ولدي.

ـ بل كنت في قلبها.

وأشهرت زوجتي بوجهي المظروف الممهور بسخام صبغ الأحذية، وسخام وجه الحرب الكالح، كان المظروف عينه الذي ألقيته واستقر جوار شجرة الأثل، ومن الطابع الملصق أعلاه علمت أن أحد سكان تلك المدينة الحدودية الصغيرة قد بعثه من دائرة البريد.

***

* سُخام : لَيْلٌ سُخام : ليلٌ أسود ، ـ يَوْمٌ سُخام : يوم أسود . (المعجم: اللغة العربية المعاصر)

الصفحة رقم 14:

القرين، و..... أنا

قرأت الكثير عنه في المدونات السردية، وأسهبت الكثير من المقالات والتنظيرات والدراسات في استكناه كينونته ولماذا يظهر عند طبقة من الناس دون الأخريات، وتحديداً لمن يمتلكون ملَكات شاسعة من الخيال والابتكار، كالكتّاب والشعراء والفنانين، ولكن أن يظهر عندي في ليالي غرفة الرصد الموحشة وخاصة في الليالي الطويلة، فهذا ما لم أكن أتوقعه أن يحدث لي قط، كنت أهجسه في البدء كومض يتخاطف أمامي كطيف بارق حالما يبرق ينطفئ على الفور، ولكن حضوره تمادي وامتد من الحضور الخاطف إلى إحساسي بتواجده أمامي وعلى جنبي، وأحياناً أمام الباب الذي سرعان ما ينزاح فاسحاً المجال لجسده الأميبي كي يطأ العتبة ويقف لصقها من الداخل وأنفاسه تلفح نحري، والذي سرعان ما أعلن عن نفسه بالتدريج وامتص عندي شعور المباغتة والخوف والتوجس والغرابة، حتى تبدي ذات مساء مطير أمامي بابتسامة موارية نزقة ووجه ضحوك ـ وهذا كنت

استنتجته وتوقعته حالما أيقنت بوجوده المتخفي الذي سيقوم بالإعلان عن نفسه عندما يحين الوقت ـ فلم يند عني أي رد فعل عن انوجاده أمامي وهو يقتعد المقعد قبالتي تماماً، بادرني على الفور.

هو: أعرف أنك لم تتفاجأ بحضوري.

أنا: وكيف استنتجت؟

هو: كنت تتوقع ظهوري في أي وقت.

أنا: وكيف عرفت؟

هو: ذوات المخيلة لا يكّذبون الأخيلة الهاجسة.

أنا:إن أنا إلاّ قارئ مثابر.

هو: لا تتلاعب بي فأنا أعرف كل خبايا مخيلتك؟

أنا: «حكيم روحاني حضرتك».

هو: لست عبدالوهاب، بل أنا ـ وأعرف أنك تعرف ـ وأنت شيء واحد.

أنا: هل قرأت مجموعة قصصية لسليمان فياض عن هذا الأمر. وتحاول أن تلعب معي نفس اللعبة؟

هو: بالضبط، هو أنا نفسه من جاء إلى شخصية قصة سليمان فياض.

أنا: أنت رديف المبدعين، وأنا لست منهم.

هو: تعجبني في تواضعك.

أنا: إنها الحقيقة.

هو: أنت كاتب، وينبغي أن تشهر كتاباتك على الملأ.

أنا: إنني أشخبط أشياء خاصة بي.

هو: إنها ليست شخابيط، بل كتابات تبحث عن هوية.

أنا: ماذا تعني؟

هو: ذاتك الإبداعية متشظية إلى مشارب عديدة.

أنا: لا تبلبل روحي، أعرف أنك ستقول أنك قريني الرابض في أعماقي وقد جئت لكي تغيّر بعض قناعاتي.

هو: أنت قلت...

أنا: أرجوك أن تحّلَ عني، فما أنا عليه الآن يكفيني.

هو: هل تحب بلدك؟

أنا: هل تتحاذق معي؟

هو: بالتأكيد لا؟

أنا: تستطيع أن تجلي الجواب من المكان الذي أنا فيه.

هو: تواجدك هنا هل هو قناعة شخصية؟

أنا: لو كان لي خياران أحدهما هو هذا المكان القصي الشاهق، وآخر يحتم لي أن أعيش بشكل أفضل، فالسؤال لا يحتاج إلى جواب.

هو: لست راضياً على وضعك..... صحيح؟

أنا: أأنا مجبر على الإجابة؟

هو: الإجابة أمامي أقرأها كصفحة في كتاب.

أنا: تقرأ أفكاري؟

هو: أتشك في ذلك؟

أنا: من أنت؟

هو: أنت تسأل هذا السؤال للمرة الثانية، هل قرأت، وأنت الذي تشبه الفأرة التي لا تكل من قضقضة الكتب، عن شيء اسمه قراءة الأفكار؟؟؟

أنا: أتقصد كتب الباراسايكولوجي...؟

هو: وسواها الكثير.

أنا: أجبني أنت إن كنت حقاً تسكن ذاتي؟

هو: أنا لم أفصح عن هذا؟؟!!

أنا: هو استشفاف ذائقتي..

هو: ولم تجانب الحقيقة؟

أنا: إن كنت حقاً كما تدّعي قل لي عنوانه.

هو: إنه هناك تحت صندوق المراقبة ملفوف بكيس نايلوني أسود اسمه.

أنا: لا تكمل....كيف عرفت؟

هو: الإجابة لديك..

أنا: حسناً أني أبحث عن الحرب... ولماذا هي كحجر الرحى يديرها مجنون ويقودها الشيطان؟

هو: تشبيه جميل ومنطقي وحاذق.

أنا: هو مجرد سؤال بسعة الكون.

هو: ما رأيك بجولة نخترق بها الزمان والمكان؟

أنا: هذا مستحيل.

هو: أقرأت عن تمرد الدماغ وكينونته النزقة؟

أنا: الأحلام...؟!!

هو: ليس فقط الأحلام... هناك انفلات عقال الدماغ وتحرره من الأصفاد.

أنا: هل ينفلت الدماغ من تلافيف الجمجمة....؟ لم أقرأ عن هذا الكثير.

هو: لنجرب...

أنا: لست حقل تجارب.

هو: لا تجزع.. لن أقدم على فعل خاسر، لو أصابك مكروه أكون أنا المتضرر الوحيد معك.

أنا: فهمت.

هو: هيا.

أنا: أين...؟

هو: لنرى مصائر العظماء الفانين.

.....
.....
.....

هو: ها عدنا ثانية إلى غرفتك.

أنا: أجل.....

هو: هل وجدت أجوبة لأسئلتك؟

أنا: إنها تتبدى جلية أمامي.

هو: أرأيت مصائر الذين أشعلوا كل تلك الجوائح التي كادت تذهب وتزلزل كينونة العالم، إلى أي مصير انتهت؟ حفرة صغيرة بشاهدة، وبعضها لم تجد تينك الحفرة، والأخريات إلى مطاوي المجهول.

أنا: هل يقرأ جبابرة اليوم ممن يشعلون أوار الحروب، ما حلّ بأسلافهم.

هو: طبعا لا يقرأون، لآنهم يجهلون الحرف وفكّ مغاليقه..

أنا: كيف...؟ وأغلبهم منظّرون...

هو: منظّرون.... هه.... هراء.

أنا: وما هو مآل السنين القابلة؟

هو: دكتاتوريون آخرون ممسوسون بعشق الحروب.

أنا: هذا رهيب.

هو: ثمة حل.

أنا: ما هو...؟

هو: لماذا تتعكز على فصاحتي؟

أنا: أنا...!!!!

هو: فك الطلسم بنفسك.

أنا: دماغي لا يشتغل...

هو: بل هو متوقد.

أنا: ثمة جدار صلد.

هو: سيتقوض تحت معاول التفكير.

أنا: عسير.

هو: إني ذاهب...

أنا: والحل... كلمني عن الحل... هل نبقى نتناسل دمى الحروب؟

هو: الحل هو في دماغك أقرب من الأبهر إلى القلب.

أنا: أرجوك...

هو: أنا ذاهب

أنا: اين ذهبت...؟!!!

وصوت الباب وهو يوارب جعلني أعود إلى نفسي، فركت عينيّ وجسدي يسابق خلاياه الفزعة نحو الناظور، وعندما تأملت المدى المغسول بجلدة الليل الغلس، رأيت..... الحل.....!!!!.

الصفحة رقم 13

(الأُم..... م) الموءودة

بعد توقيع معاهدة السلام بين دولتين برعاية الأمم المتحدة، وقف الزعيمان المتخاصمان يتوسطهما الأمين العام للأمم المتحدة وهو يضحك جذلاً ويُبرز أسنانه النضيدة البيضاء، وكاميرات مراسلي الأنباء والصحفيين والإعلاميين تنعكس في النقطة البؤرية البارقة في عمق عدستي نظارته الأنيقة، وذراعاه تحيطان بمنكبي الديكين العابسين، عفواً.. الرئيسين المتصالحين الذين يمثلان أحد الأقطاب المهمة للصراع العالمي، وهما ينظران إلى العدسات بابتسامة بروتوكولية اجتهد ذوو الاختصاص من تلقينهما إياها، وسواعدهما يحيطان بظهر الأمين العام وتتحاشى الكفان المستوفزتان من ملامسة إحداهما الأخرى تقززاً واحتقاراً، وفي حشية كل منهما شعور حازم بأنهما، كل على حدة، هو الخلف الحقيقي للأسلاف الذين زجوا

المعمورة في رمضاء نيران متطاحنة أودت بحياة الملايين من البشر الأبرياء، وكل منهما يفكر، حال مغادرته القاعة في الأفانين التي تبرر نقضه لهذا الاتفاق الهش، والذي لم يتحقق إلاّ على متن تينك الأوراق الصقيلة البغيضة البيضاء، في رحاب قاعة تنوس فيها أضواء حليبية ساطعة لا يمكن ان تقاس بمدى لذّتهما وهما يبصران ذلك السطوع الهاطل من غمام الطائرات وهي تهب المدن والضياع والكُوَرْ ذلك الموت المجاني الأبيض بياض تينك الومضات العنقودية التي تشبه شآبيب مطر ربيعي منعش. وبعد أن وقعا، كلٌّ على حدة، تلك الملفات السميكة، ما انفكا يفكران، كلٌّ على حدة، لنقض هذا السخف الذي أُبرم داخل قاعة تتوسطها مائدة كبيرة مستديرة لامعة، تتراص على حوافها الخارجية مقاعد وثيرة تلتمع حوافها بشريط ذهبي لامع، تنوء بحمل أجساد ذات نظارات لامعة، وبلا نظارات بوجوه صبوح عيونها لامعة، وكل ما في القاعة لمعان في لمعان، ووسط لمعان الجدار الذي يتصدر القاعة ثمة نحت ذهبي لميزان متوازي الكفتين. يفكر الديكان، عفواً... الرئيسان المتخاصمان، كلٌّ على حدة، بإمالة الكف التي يتصور نفسه يقبض عليها بقدمية ويديه وأسنانه نحوه كي يطيّر قدميّ خصمه، وخلع يديّ عدوه، وقلع أسنان ندّه، وبما يرضي الوجوه الممهورة بالغموض لتجار الحروب غير المرئيين،.... في هذا الجو الاحتفالي الباذخ، وثمة على الحدود العريضة بين بلديهما، لما يزل، وجوه تُشوّه، وأرواح تُزهق، وبني تحتية تُمحى تلبية لرغبة شوهاء، شوهت بعصابها... نسغ الحياة البهيج للحقول والسهول والجبال،

العيون والينابيع والروافد والأنهار، المدن والقرى والغابات البكر... إلخ، في عصاب وجنون يصيب أفخاخ رؤوسهم، وأفخاخ أوساطهم النتنة، وأفخاخ ال.....؟؟؟!!!!.

وسط هذه الأبهة، وجرياً على العادة، تُؤخذ لهم صور، شأن كل اتفاق سلام يبرم بين الدول المتحاربة، تُلتقط صور تذكارية تحت لوحة كبيرة لرائعة الفنان بابلو بيكاسو الموسومة (الجورنيكا)، وهي تُقصف من جديد بوحشية، ولكن ليس في ذاكرة الزمن الذي تصّرمت عليه عقود عديدة، بل في جمجمتي الديكين «المتصالحين»، عفواً.... الرئيسين المتصالحين، وهما يعدان العدة، وهي التي لم تنهض من تقوض بنيانها ولم ترتد ثوب التواجد من جديد، بالمزيد من القصف بالطائرات والراجمات والصواريخ، غبّ استراحة قصيرة، بل لوأد ذلك العبقري الذي جسدّها بلوعة ووجع انساني صافٍ صادقٍ ليعلنها للملأ عبر الأزمنة صرخة إدانة وتعرية للحرب بكل قذارتها ووساختها وتداعياتها، وتتبوأ تلك القرية الاسبانية المسالمة الهاجعة، الطفلة الملاك، بعد أن استراح العالم من حماقتين جائحتين أحالت كل ما هو ينتفض بالحياة إلى سكونٍ موات، يتراقص معلناً شهيقه الأخير، ونبضه الأخير، وهوية دمه الأخير، وغورنيكا... القرية الطفلة الشهيدة بعد أن تستنبط اللا معقول واللا منطق تتجسد على هيئة كائن يُعرض على شاشات العالم العملاقة، دخيلتي الديكين وتستنطق قراءتيهما في لقائين دون أن تقدر كل تقنيات التكنلوجيا المتطورة من منع ما تتحدث بها الدخيلتان المصابتان بالعصاب والجنون .

فتتكلم دخيلة الديك، عفواً... الرئيس الأول قائلة.

ـ هي هدنة مؤقتة، أُعيد بها ترتيب أوراقي ثم أعاود الهجوم وأنقض المهزلة التي جرت قبل قليل في القاعة الدائرية الموبوءة بالرياء والمداهنة والكذب والمسخرة، ثم أحيل كل الدول والمدن والكور إلى مثل هذه...

ويستدير الديك، عفواً.... الرئيس، ويواجه «الجورنيكا»، ويقول.

ـ سأجعل القاعات كلها في هذه المنظمة المسخرة تعج بلوحات أخرى شبيهة بهذه اللوحة التي رسمها متسول مأفون تافه....

ثم يرسم ابتسامة بروتوكولية على محياه.

ثم تنتقل الكائن بكاميرته نحو الديك، عفواً.... الرئيس الثاني، فتتكلم دخيلته قائلة.

ـ هي هدنة مؤقتة، أُعيد بها ترتيب أوراقي ثم أعاود الهجوم وأنقض المهزلة التي جرت قبل قليل في القاعة الدائرية الموبوءة بالرياء والمداهنة والكذب والمسخرة، ثم أحيل كل الدول والمدن والكور إلى مثل هذه...

ويستدير الديك، عفواً.... الرئيس الثاني، ويواجه «الجورنيكا»، ويقول.

ـ سأجعل القاعات كلها في هذه المنظمة المسخرة تعج بلوحات أخرى شبيهة بهذه اللوحة التي رسمها متسول مأفون تافه....

ثم يرسم ابتسامة بروتوكولية على محياه.

***

الصفحة رقم 14:

[ذلك الرجل..]

المُغمَّى بالتواريخ السرية
ينزع عن عينيه وآذانه وحواسه الثمانية
مثلما تفعل الشرنقة
كل الغلالات واللفائف التي لها أرقام
والتي لا أرقام لها
وقبل أن تتعرّس كائناً ساحر القد
نضى أهلّة المحبة
وحارب بها
كل الخطابات المتلفعة بدروع الحرب
التي تسور القلاع والأسوار وأنفاس الناس اللائذين خلفها
والذين لا ناقة لهم في شواظها ولا جمل

والرسائل الممهورة ب....
الطائرات...
المدافع....
والقذائف.....
والجماجم المزّنرة بالحقد والشنار.....
[ذلك الرجل...]
بعد أن نفض عن منكبيه مارس
وعفرّ نهر ستيكس بأنفاس المحبة
كي لا يغمس في لجته أخيلاً جديداً
ويبقى العالم تحت رحمة عقبه
حلق بناسوته الطهور عالياً
عالياً
عالياً...
بهيئة كائن نوراني مجنح،
ومن كل خفقة جناح
تتناثر لآلئ بارقة تزخر بالسكينة والسلام
و....
صارت الدنيا برمتها عثوق متقاطرة تترنم بالمحبة....

***

إشارة: تحت أية يافطة سيضع النقاد هذا البوح الموجع الصادق: قصيدة تفعيلة..؟، قصيدة نثر...؟، نص مفتوح....؟، أم..... خاطرة؟؟.

لا يهم....!!!

إنها.... خلجات روح هائمة تنبض وتبتغي المحبة والسلام.

الصفحة رقم 40:

لا أخفي على أحد، أنا مدمن قراءة، وخاصة في القصة القصيرة، ولديّ تصور عن مسار القصة العربية، والعراقية على وجه الخصوص، وتمتّعني القصة العراقية برموزها، وخاصة عندما لبست لبوسها المتطور على يد قصاصي الخمسينات والستينات، بما أسبغوا على هذا الجنس الأدبي من تقدم وتجدد، ولكني لاحظت ظهور «جنس جديد» أسماه النقاد «القصة القصيرة جداً»، ووقوف أغلب النقاد والقصاصين على الضد منه، وأمطروه بوابل من النعوت، واتهموا من يجترحه بالفاشل الذي لا يستطيع أن يكتب «القصة القصيرة» فيهرب إليها، ولكون ذائقتي لجوجة تبغي الاطلاع الدقيق والمفصّل عن أي وافد إبداعي جديد، إستقصيت وسألت، وبحثت خلال إجازاتي الدورية عن كتب تتحدث عنه، ونلت مبتغاي بكتيب من ترجمه الأستاذ كاظم سعدالدين عنوانه (فن كتابة الأقصوصة) صادر عن «الموسوعة الصغيرة» تسلسل / 16 منشورات وزارة الثقافة والفنون/ الجمهورية العراقية عام 1978، لمجموعة من النقاد والمنظرّين الأمريكان مطبوع في الأصل عام 1946، تحت عنوان: Short Short Story بإشراف الكاتبة Sylvia

E. Kamerman، وعندما أنهيت قراءته إنفتحت أمامي الأسانيد التي ابتنى عليه هذا الفن السردي.

وعندما أردت البحث عن التجربة العراقية قادتني المصادفة للاطلاع على عدد مجلة (الموقف الأدبي) السورية الصادرة عام 1974، وفيها ملف عن القصة القصيرة جداً في العراق، كتب فيه مجموعة من النقاد والقصاصين الستينين، ومن ثم عرفت من خلال مقالة للناقد العراقي باسم عبدالحميد حمودي منشورة في مجلة (الأقلام) العدد الصادر عام 1988، أن الرائد العربي لهذا الجنس هو القاص العراقي الرائد نوئيل رسام الذي سبق تجربة الكاتبة الفرنسية ناتالي ساروت في الكتابة بسنتين، فانفتحت قريحتي القرائية لهذا الجنس، ورغم شحته وانحساره في السبعينات إلاّ من تجارب ومحاولات شاحبة، غير أنه ازدهر في العقد الذي أنا فيه، الثمانينات، وبرزت فيه أسماء مهمة بدأت في السبعينات ونضجت في منتصف الثمانينات، والأسماء كثيرة، ولكن لا أخفي إعجابي بقصص قصيرة جداً ينشرها قاص عراقي شاب في مجلات تصدر في أوروبا مثل(التضامن) التي تصدر في لندن، و(اليوم السابع) التي تصدر في باريس، و(الدستور) التي تصدر في لندن أيضاً، وسواها... وأتوقع له شأناً ما مع هذا الجنس الإبداعي اسمه هيثم بهنام بردى.

ولكوني لجوجاً أحب أن اخوض في الكتابة، ليست للنشر، بل اشباعاً لذائقتي، كتبت هذه المحاولات في جنس القصة القصيرة جداً، وهي راقت لي بعد الفراغ من كتابتها.....

***

قصص قصيرة جداً

(الذراع المشهرة)

كان يجلس قبالتي، بملابسه الكاكية، والشمس خلف هامته تتوارى، ولا ينفك يتحدث عن مدينته الجميلة وعائلته الصغيرة، كل شيء في قسمات وجهه مشرقة بابتسامة رائقة، أخرج من حقيبته الكبيرة خبزاً شمالياً مرصعاً بالجبن الأبيض، ناولني واحدة، قضمت منها بلهفة ورائحتها الزكية تفغم فمي وكل أحاسيسي، رفعت رأسي لتنحبس اللقمة في فمي رصاصاً ثقيلاً وأنا أعاين ابتسامته المؤتلقة بالبراءة، تحولت إلى تكشيرة وقد اغتسل وجهه البريء بالدم الهاطل بغزارة من ثقب في الجبين، وتوسد وجهه التراب الندي، وسط ذهولي المطبق، ولكن ذراعة بقيت مشهرة بوجه السماء تحمل الخبز الجني الطازج.

***

(عذراء بتول)

حين وصلنا إليه نحن شلة الإسعاف الميداني، رأيناه مسجياً ووجهه إزاء نبتة خرافية الاخضرار، وعيناه تنظران بمحبة إلى وردة بيضاء تتوسط كعروس مدللة في شعفة النبتة، ورأينا عجز يديه المكبلتين خلف ظهره، وقد تخرمت صدره رصاصات حفرت آباراً ارتوازية تنبجس من فوهاتها دماء فائرة تسللت بطريق نيسمي مستقيم إلى جذر النبتة، ورأينا الوردة تتشرب بخجل عذراء بتول وقد توسط بدنها صورة جندي وسيم تشرّب وجهه بحمرة العذارى المتلبسات بالنظر خلسة نحو فارس أحلامها.

***

(أمنية)

عينا الصبي لا تبارحان الأقدام الساعية أمام مقلتيه الخفيضتين دوماً، يتابع الأحذية الساعية إلى غاياتها، وعجيزته تنبض بألم ثاوٍ يبعثه نتوء مسمار مدبب في مقعده الخشبي والذي يتصادى مع نبرته الموجعة.

ـ عمي... تصبغ...

ولم يكن تجاهل الوجوه التي تضن عليه حتى بكلمة مبتسرة تفّت من عضده وهمة فرشاة الأحذية وهي تتراقص بمهارة بين كفيه وتهبط على حافة صندوق الأصباغ في دقة منغمة، وهو يهتف.

ـ عمي... إذا لم يعجبك الصبغ لا تعطني أجراً.

و... تنخطف ذاكرته الفتية للحظة وامضة مبصرة السيارة التي وقفت أمام باب دارتهم الطينية، وتلك الصيحة المؤسية لأمه وقد تحلّق حول جسدها المنتفض والناطق بالفجيعة أربعة أجساد غضة أصغر منه، و... تناثرت دمعة حارقة من عينيه أحرقت واقعه الراهن حين صارت حياته وحياة أخوته وأمه مرهونة بالأحذية اللامعة، واتخذت دمعته مساراً فوق الصندوق ويجرف كالمطهر كل قذارات الأصباغ لتشرق شمس جديدة طهورة ليس فيها شيء اسمه الحرب.

***

الصفحة رقم 49:

القصة القصيرة

أثناء إجازاتي الدورية، كنت أقرأ في الصحف والمجلات قصصاً عن الحرب، وعندما أفرغ منها، يتبادر إلى ذهني مثل شائع يقول (يثرد بصف الماعون) وتيقنت أن لا أحد يفلح في اجتراح قصة الحرب إلاّ من تقددت خلاياه بشواظ أوارها، والحوادث التي أبصرتها باصرتي خلال تواجدي في ساحات السلخ... عفواً (الحرب) كثيرة، ولكن واحدة سردها عليّ سائق الفوج عاش حدثها، جعلتني أكتبها على الفور، فجاءت بهذه الهيئة التي أبت إلاّ أن تسمي نفسها «قصة قصيرة».

***

قصة قصيرة

(عريس)

وجدته وحيداً على قارعة الطريق، كان يبدو من بعيد كنقطة مختلفة غير مألوفة لأمكنة باتت مألوفة وهي تتنفس الموات والخراب بتفاصيلها المتمثلة بالعربات المحروقة والشفلات والحفارات المبتورة بفعل القذائف، والمواضع المهدمة على هامات أجساد كانت فيما مضى تتنشق وتنبض بالحياة، وعندما اقتربت منه وجدته قد وضع بيريته فوق حقيبته على صفيحة مبعوجة الجوانب، أومأ لي بلهفة سفينة وجدت فنارها، دست على الكوابح فتوقف الزيل، صعد على دواسة الباب وأطل بوجهه العشريني، خاطبني بلهجة آسرة ودودة.

ـ خذني معك.

ـ أين وجهتك...؟

ـ مغاوير 110.

أومأت برأسي وأنا أمعن النظر فيه.

ـ هي وحدتي.... إركب.

إقتعد المقعد الوحيد الذي يجاورني، ابتسم ولهج.

ـ أشكرك أخي.

لم أجبه، سرح بعيداً والبسمة المشرقة لا تفارق غمازتيه، تأملته من خلل زجاج السيارة الجانبي، كان الفرح في عينيه ينث كدوش من رشيش منعش ينث من تساقط حزم شلال هادر، سمعت لهجته المدنية بجرسها الخاص وهو يقول بنبرة لا حد لغبطتها.

ـ الحياة جميلة.

صمت لوهلة كي أعلّق، وعندما لاحظ حيادية قسمات وجهي، صار يدّولب الحلقة الذهبية التي تسور بنصر كفه اليسرى كي يلفت انتباهي، ثم همس بأمنية عصية.

ـ لو كانت هناك سلام.

ثم غب صمت.

ـ حينئذ يكون العرس مكتملاً.

سألته.

ـ هل تزوجت؟

أجابني بصوت جرسه خرافي في رنته، سيما وأنه فتح مغاليق روحي، فأجاب بجذل مجنون.

ـ أجل، تزوجت قبل الالتحاق من الاجازة الدورية.

وبعد لحظة.

ـ أنا عري.....!!!

وانقطع صوته باتراً ال (س).

التفت إليه مستفهماً، وجدت جسده قد مال صوبي وكتفه عانق كتفي، والدم يشخب مدراراً من ثقب أحدثته رصاصة قناص ما بين العينين، فاض الدم غاسلاً «قمصلتي» التي تماهت مع «قمصلته» في عناق أبدي، وبادلته عين الابتسامة التي صارت عنواناً للوجود، أوقفت السيارة، مددت ذراعي واحتضنته واضعاً شفتيه المخضلتين بالدم الفائر على صلمة أذني، وثقبت الغروب الساجي بصوت صائل..

ـ أكمل حديثك أيها العريس.

الصفحة رقم 70:

في رواية (ذئب البوادي) للفذ هرمان هسه، تتشظى الشخصية الرئيسية إلى «هرمينات» كثيرة تختلف في بعض سماتها، ولكنها في الختام تتشكل على هيئةروافد تصب في كينونة الجسد الأصيل الأصلي، وهكذا أجد روحي تتشكل كل يوم وتتفرع على شكل غصن يتخذ مساره المختلف عن رديفه ويشق طريقاً في الفضاء على خلاف خله، ولكن في النهاية تكون الخاتمة متمثلة في تشكيل بنية شجرة وارفة الظلال، وهذا اليوم تفرعت من سمت روحي محاولة لكتابة مسرحية قصيرة تطاوعت في ذاكرتي كقطعة عجين مخمرة تقددّت في فرن روحي على شكل أصابت صميم روحي بسمات الرضا، والأمل أن تحوز عين الرضا في ذائقة من يقرأها، ولكنها عصت عليّ في شيء واحد حسب، ذلك هو العنوان، فتركت الفراغ بين قوسين كافياً كي تُدخلوا في أحشاءهما العنوان الذي تختاره ذائقاتكم.

مسرحية قصيرة بعنوان (---------)

الزمان: موغل في القدم.
المكان: أي مكان.

[المشهد الأول]

قاعة فسيحة مكتظة بمقاعد متقابلة
يجلس عليها شيوخ،لحاهم ناصعة
البياض، وعلى العرش الذي يتصدر
القاعة يجلس الملك

الملك: (*وهو يمسك الصولجان المذهب، يخاطب قائد الجيش الذي يقف وسط القاعة*) حدثنا عن وضع الميدان يا قائد الجيش؟
قائد الجيش: (*بقنوط*) الوضع ليس في صالحنا يا مولاي.
الملك: (*يكفهر وجهه*) إلينا بالتفاصيل.

قائد الجيش: العدو المتربص خلف أسوار المدينة لا يزال يمطرنا بنيران المنجنيقات، والأحياء والبيوت تتهدم وتحترق من جراء ذلك، لو استطعنا تعطيل هذه الآفة ستكون وطأة الحرب أخف على الناس.

الملك: ومعنويات الجند...؟

قائد الجيش: رابضون كالليوث فوق الأسوار.

الملك: وهل تستطيع كتيبة من جيشنا أن تفاجئ العدو وترده عن الأسوار...؟

قائد الجيش: (*بنبرة محبطة*) تحصيناتهم ومتاريسهم محصّنة، وكتيبتنا ستكون صيداً سهلاً لنبالهم ورماحهم.

الملك: (*كمن يستجير بالرمضاء من النار*) بم تشير.....؟

قائد الجيش: (*بعد أن يمطر الوجوه بنظرة سريعة*) بما يأمر به مولاي.

الملك: (*يؤشر بصولجانه*) حسنا أيها القائد.. اتخذ مجلسك...؟ (*نحو أحد الشيوخ*) ما هو موقف الغلّة والأرزاق..؟

الشيخ: (*ينهض نحو منتصف القاعة، بنحني ثم ينهض مواجهاً الملك*) وضعنا لا يسر العدو، فكيف بالصديق.

الملك: (*لنفسه*) المجاعة قادمة.

الشيخ: (*بحزن*) الشعب يصارع الجوع.

الملك: (*بهمس غاضب*) لماذا يحصل للمملكة كل هذا....؟

الشيخ: (*يسمع همسه الموجع*) مولاي، جلالتكم رجل حكيم، تجنح

دوماً للسلم، وتسخّر كل طاقات المملكة من أجل أن تسود السكينة البسيطة، ليس في المملكة فحسب، بل في العالم برمته من جهاته الأربع، ولكن العلّة هي في الآخر الذي يفهم هذه السجية النبيلة بأنها من علامات ضعف المملكة، فكثر الطامعون في مملكتنا الزاهرة بوجود رجل مثلك تنظر إلى الأمور بمنظار نظيف يعاكس تماماً ما ينظرون به من خلاله.

الملك: (***لدخيلته***) فتقت الجرح وسكبت الصديد إيها الباصر. (***نحو الجمع***) بم تشيرون...؟

أحد الشيوخ: (***بصوت جهير***) ما يراه مولانا.

الملك: (***يتجاهله***) من يمتلك رأياً للخروج مما نحن فيه من موقف عصيب؟

شيخ مسّن: (***ينهض بصعوبة بالغة ويتوسط القاعة، وبعد أن يلتقط أنفاسه المتهدجة***) الأمر يحتاج إلى فطنة وحيلة (***وبعد وقفة قصيرة كي تنتظم أنفاسه***) ثمة حكاية سمعتها من جدي وأنا صبي، أحداثها تماثل بالضبط ما نحن فيه من ضيق، وبفطنة أحد الحكماء ومباركة الملك، وتواجد شاب يمتلك من المؤهلات والسمات ما تجعله يجتاز المحال نجحت خطته وأبعدت الخراب والفناء عن عاصمتهم المحاصرة.

الملك: (***بلهفة***) قصّها علينا... (***لنفسه***) ففي روح الحكايات القديمة نجد المفتاح الذي يفضي إلى ما لا يصدقه عقل.

الشيخ المسّن: يحكى أن مدينة مسالمة يحكمها ملك عادل حوصرت

من قبل ملك طامع، وكادت تستسلم من جراء نفاذ المؤن والغلّة والماء والسلاحوالفرسان، لولا حكمة أحد شيوخها الدهاة وشجاعة أحد أبناءها الشباب المتوشح بالجرأة والسرعة والقدرة على التخفي والتمويه و.....

(قطع)

***

[المشهد الثاني]

الزمان: شفق ليلة معتمة ماطرة.

خيمة كبيرة مزخرفة، داخل معسكر كبير محصّن يحيط بمدينة أسوارها عالية.

الملك: (*صارخاً بغضب وهلع*) أين رئيس الحرس...؟!!.

حارس: (*بخوف وهو يرتجف*) إنه قادم يا مولاي.

الملك: (*صوته يلعلع*) إليّ به على الفور.

رئيس الحرس: (*يدخل الخيمة خائفاً*) أمر مولاي.

الملك: (*وصريف أسنانه يعم فضاء الخيمة*)أيها الغبي، حسابي معك لاحقاً جد عسير.

رئيس الحرس: (*مرتعصاً*)أمر مولاي.

الملك: (*بهستيريا أشد*) كيف حدث هذا.... والخيمة مسوّرة بالجند؟.

رئيس الحرس: (*وقد استعد بعض نفسه*) ماذا حدث يا مولاي...؟!.

الملك: (*بنبرة أخف ولكن حاسمة*)كم هم حرس خيمتي؟

رئيس الحرس: فصيل كامل قوامه مائة فارس.

الملك: (***وقد عاد إليه غضبه***)أعرف أيها المأفون أن قوام حمايتي فصيل كامل من الرجال الذين لا يمكن أن تتسلل نسمة هواء دون إذنهم، وحتى ضوء شمعة لا يمكن أن تتسلل إلى خيمتي دون علمهم.

رئيس الحرس:نعم يا مولاي، هذا هو الواقع.

الملك: أصمت أيها العار (***يصمت رئيس الحرس وأصابعه تتلمس نحره***) لا تقاطعني عندما أتكلم.

رئيس الحرس: (***وقد غاض صوته***) أمر مولاي الملك.

الملك: يحرس خيمتي على الدوام ما يقارب العشرين حارساً (***يرفع رُقاً ملفوفاً موضوعاً على خوان قرب السرير عند موضع الوسادة***) إقرأ ما جاء فيه.

رئيس الحرس: (***يتناول الرق بأنامل مرتجفة***) أمر مولاي الملك.

الملك: (***بأمر ناجز***) بصوت جهير.

رئيس الحرس: (***وقد امتقع لونه***) من ملك المدينة المحاصرة.... إلى الملك الذي يحاصرها.

السلام لك.

أنا بطبعي أستمد سجاياي من أناس المملكة التي شرّفتني بخدمتها، وشعب المملكة يجنح على الدوام نحو السلام وارساء دعائم السلام، ومن أبسط مفاهيم السلام هو احترام الشعوب والدول بعضها لبعض، والنأي عن البغضاء والطمع والغزو والتدمير، ومن هذه

المفاهيم السامية أرسلت إليك خطابي بواسطة أحد الشباب اليافعين المندفعين، الذين يتقمصون سمة الشبح الذي لا يبصره أعتى الجنود المتمرسين اليقظين، ولو شئنا الأذية لكنت أمرت الشاب بأن يجهز عليك ويسلب روحك وأنت في فراشك وداخل حصنك العسكري المنيع وبين خيم أعوانك القادة المحنّكين البواسل، ولكننا لم نؤمن إلاّ بالسلام ولاشي عداه، وأن يعم السلام البسيطة، وأن تتعاهد كل الأمم والممالك المتحاددة والبعيدة على بسط أنسام السلام كي تنعم الناس بالسعادة والعيش الآمن الرغيد. وهذه هي رسالتي إليك، يدي تمتد نحو يدك كي تتصافحا على أسس السلام والمحبة. والسلام لك ولشعبك.

الملك: كيف وصل رسوله الى الخيمة أيها الحاذق؟

رئيس الحرس: مولاي....

الملك: (*بهدوء*) لا تكمل..... كل المبررات لن تقف أمام الحقيقة التي تقول أن ثمة شاب من المدينة المحاصرة اخترق كل الاستحكامات، ليس في حدود الخيمة الملكية فحسب، بل في حدود المعسكر برمته، وكل التأويلات لن توقف اليد التي كان بإمكانها أن تحمل المدية بدل الرق وأن تحّز رقبتي بهدوء وصمت، ولكنها آثرت أن تبصرني بهذا الرق الذي يتصقر في يدك..... (*بعد صمت*) أريد القادة جميعهم في سرداق العمليات العسكرية بعد ساعة من الآن.

(قطع)

***

[المشهد الثالث]

المكان: أسوار المدينة المحاصرة.

الزمان: ضحى يوم جديد.

يقف على متن أحد أسوارها الحصينة الملك
يرافقه قائد الجيش، وبعض الشيوخ،
في مقدمتهم الشيخ المسن.

قائد الجيش: (*وقد ألجمه العجب*) إن ما أراه عجيب يا مولاي!!!.

الملك: (*بصوت واثق*) فيم العجب....؟

قائد الجيش: ملك غازٍ على أعتاب اقتحام المدينة يقوّض خيامه وينكّص أعلامه...؟؟!!.

الملك: وكيف تقرأ الحالة..؟

قائد الجيش: (*بحيرة*) الأمر ملتبس عليّ، فما يفعله هذا الملك يفعله عادة الغزاة المهزومون.

الملك: وهل هم كذلك؟

قائد الجيش: (*الحيرة تتعاظم*)الأمر محيّر...!!!.

الشيخ المسن: (*بهدوء الحكماء*) حقاً إنه أمر محيّر..... ملك على وشك الانتصار يكاد يقتحم المدينة، يقوّض الخيم ويدير المجانيق نحو الاتجاه المعاكس للأسوار وينفخ في الصور، كل هذا يدل على إعلان الهزيمة.

شاب ثلاثيني: (*يهمس في إذن الشيخ المسن والابتسامة لا تبارح محياه*) لم يكن الأمر سهلاً، فقد اقتضى الأمر مني أن أتجّسد بهيكل الأشباح الذين لا ملامح لهم وأنا أزوغ بخفة بين الخيم والفرسان وحرس الخيمة الملكية الكثار.

الشيخ المسن: (*يبادل الملك الابتسام*) سنجعل فناني المدينة ينحتون تمثالاً للشبح الذي أنقذ المدينة، وننصبه في ساحة الاحتفالات.

الشاب الثلاثيني: (*يُحني هامته توقيراً للملك، ويمنح الشيخ المسن ابتسامة محبة*) أنا جندي في خدمة المملكة.

الملك: (*يبتسم بوجه الشاب ويلتفت مخاطباً قائد الجيش*) ماذا نفعل....؟

قائد الجيش: (*بحماس ميداني*) أنا لا زلت أجهل سبب فعلتهم هذه، أرى أن نباغتهم في معركة فاصلة.

الملك: (*يهتف*) لا يا رجل.... كيف تفكر هكذا...؟!، يوم أمس كنا تحت رحمة مجانيقهم، وكانوا هم الجلادين، فكيف تمنطق قلب المعادلة ونتحول من ضحية إلى جلاد.

قائد الجيش: (*يتراجع*) أنا جد آسف يا مولاي....

الملك: (*بنبرة ودودة*) لا تتأسف يا قائد الجيش، فكلٌّ يفكر حسب رؤاه.

قائد الجيش: (*مذهولاً*) أنظر يا مولاي....

الملك: (*يفعل*) إنه الملك في ثلة من الفرسان يتقدم نحو الأسوار

(*يأمر قائد الجيش*) إعط أمراً للجند أن يغمدوا سيوفهم، ويركنوا نشاشيبهم في جراباتها، وأن يقفوا موقف الاستعداد والاحترام.

قائد الجيش: (*يعطي أمره للقادة، ثم يهمس مبهوتاً*) إنه يرفع الراية البيضاء!!!؟؟؟.

الملك: آتوني بسارية مكللة براية بيضاء.

الشاب الثلاثيني: (*بفرح*) إنه يلّوح براية السلام.

الملك: (*بفرح لا حدود له ويرفع السارية وترفرف الراية البيضاء*) السلام.....

الصفحة رقم 77:

الفناء

لا أتذكر أين قرأت هذه الجملة التي عصفت بكل قناعاتي السابقة والتي كانت تشبه إلى حد كبير دموع النهرين الخالدين في بلادي: بلاد ما بين هذين النهرين، الدموع المشرقة للولادة، والدموع الحمراء القانية الآذنة بالرحيل الوشيك، ربما قرأت هذه الحكمة البليغة في إحدى روايات الكاتب الإنكليزي كولن ولسن الذي كانت مؤلفاته تحتل الصدارة في مكتبات العاصمة والمدن الأخرى إبان السبعينات، والذي ترسخ اسمه عميقاً في أرواحنا، وأركن مؤلفات من سبقوه من الوجوديين كألبير كامو وجان بول سارتر وسيمون دي بوفوار وسواهم إلى الزوايا القصية في أرفف المكتبات، الكبيرة منها والصغيرة، وأزاح كما تغسل الموجة بقايا الصحف والأكياس وتبتلعها وهي تعود إلى منبتها في البحر جلّ القناعات التي ترسخت ونحن نرضع من ثدي المدارس التي انبثقت كرد فعل لما حصل للمجتمع

من تقوض بفعل الدمار الروحي والمادي لحرب طحنت الكون لست سنين ليخرج الإنسان دائخاً يبحث عن كنه الكينونة وجدوى الوجود، فصرنا ونحن في ربيع العقد الثاني من أعمارنا نتملى بدهشة كتب ولسن وصورته بنظاراته الطبية التي تنقل إلينا رسالة فحواها ان العالم النظيف لا يمكن أن نراه بعيننا المريضة المجردة ما لم نتكئ على وسيلة معاضدة، وابتسامته المشرقة التي تشف عن سخرية مرّة، أو عن الرائي لمنار يتبدى بغتة في أفق التيه، ربما قرأت الجملة التي زلزلتني في روايته (القفص الزجاجي) أو (ضياع في سوهو)، ما عدت أذكر، كانت تتشكل من خمس كلمات يهمسها العبد الذي يقف خلف عرش الإسكندر المقدوني الذي أمسك العالم بجهاته الأربع في باطن كف عقله المهووس بالمجد الأثيل والرفعة النفيسة والسمو الرفيع، المجبولة بصلصال المدن المقوّضة والأسوار المتصدعة والحقول والغابات المحروقة والأجساد المجندلة على مد البصر،وعلى مد البصر نفسه، ثمة العديد من الحوالق الجوارح ومن الضواري الأرضية تقتات على بقايا أشلائها، التي لا ذنب لها سوى أنها متواجدة في رقعة مترامية تتقاسمها مربعات سود وبيض، تتلاعب بها أنامل الأباطرة المأفونين المصابين بالعصاب والرهاب وعبادة الأنا الدونية، من أجل سمو يزلزله العبد وهو يهمس للقيصر الظافر...

(أيها العظيم، تذكر أنك فانٍ)

فكانت أوداج القيصر تعود إلى سابق أوانها، مجرد جلد يابس متهرئ لرجل ينازع سياط الدقائق والساعات والأيام والأشهر، وهي تقوده محملاً بعربته المذهبة الملوكية نحو المآل المتمثل بمستطيل من التراب الناعم الهش المرشوش بماء الوردوالمسّور بأشجار الغار والورد الجهنمي.

الصفحة رقم 100:

درس من كتاب المطالعة
للصف الأول متوسط

عن القائد الذي خسر المعركة، كنا نستمع بشغف لا مثيل له لقراءة ممسرحة مُـمَثلّة من قِبل مدرس اللغة العربية بقامته الربعة والذي كان بين كل قراءة وحركة من جسده تمثل الحالة يرفع بنطاله المتراخي بحركة متصالبة كي يوصله إلى أقصى ما يمكن أن يغطي ظهره وكرشه، وهذه الحركة الكوميدية غير المقصودة كانت تسبب لنا ضحكاً خافتاً سرعان ما يتحول إلى قهقهة لمن لا يمسك زمام نفسه والمحرك الرئيسي للتهديد بعصاه التي لم يستعملها قط في ضرب أي طالب، ومن ثم يذهب إلى قراءة سطر جديد وتنغيم جسده لمعطيات الحدث الجديد، فهو حين يتابع القائد المهزوم وهو يسابق الريح بعيداً عن رماح وصليل السيوف،صفير الرياح، كانت الرغبة تحده في النكوص والقتال حتى

الموت، ولكنه حين يعاين الميدان المليء بجثث جنوده، كان يشعر أن إشارته التي أعطاها للجند المتبقين بالانسحاب كانت منطقية، لأنهم لو بقوا يكون الفناء من انتظارهم، لأن طرفي المعادلة على النقيض من بعضهما البعض.....

والمدرس حين كان يقرأ كل هذا تتلبس نبرته نغمة حزن وحيرة واحباط من سُرق راتبه، وأن في البيت ثمة لسان واخزٍ، كاوٍ، سليط، ينتظره كي يصب في حناياه شواظ التعنيف والتوبيخ، فكنا نلمح ملامح وجهه يكسوها الشنار، والشجن في عينيه ليل كانوني داجٍ ملبد بسحب شديدة الدكنة، والنبرة في صوته تنوح كأم ثكلى تذكرت بكرها الشاب الصبوح الذي غيبته الأمكنة والسنون في المجاهل الجلدة الطامسة في ثنايا وأخاديد المجهول، فكان صوته وهو يقرأ: (جلس الملك المهزوم يتذكر الميدان الذي تبعثر فيه جيشه بين قتيل وجريح، وفكر.....)، ويتوقف كل شيء في المدرس: العينان، الفم، الشهيق، الزفير، الحركة، العصا، ويقول فجأة بشهقة عميقة تماثل من انقطع شهيقه حد الموت ثم شخر زفير الحياة.

ـ من يعرف كيف تصرف الملك المهزوم؟

قام أحد الطلاب وقال.

ـ رأى نملة تحاول ادخال حبة شعير في قن النمل، وكلما كانت تفعل ذلك مراراً وتكراراً ما نفعتها الحيلة، فنادت أخريات وتناوبن جميعا إلى أن أفلحوا؟

سأل المدرس.

ـ ثم ماذا...؟

ـ جمع الملك جيشه مرة ثانية، وهجم على العدو فهزمه.

ـ هذا ما تقوله القصة في الكتاب. أليس كذلك؟

هتفنا كلنا.

ـ نعم أستاذ.

ارتسمت ضحكة صبوح على وجهه وقال.

ـ ألا ترون أن الحرب في كرّها وفرّها لا تجلب إلاّ المزيد من القتلى؟

ـ صحيح أستاذ.

ـ ما رأيكم لو قرأنا القصة قراءة معاكسة.من يستطيع أن يضع خاتمة جديدة للقصة؟.

انبرى أحد النجباء وقال.

ـ وعندما عاد حصّن مدينته بأسوار منيعة.

ـ أسوار محصنة منيعة، وحرب طاحنة جديدة.....، هه؟؟!!.

زممنا شفاهنا والحِيرة تلف أدمغتنا البكر، فقال بلهجة هادئة عميقة النبرة.

ـ نعم يحصّن مدينته، ولكن بالمعرفة والجنوح إلى السلم.

والبلاهة تلفنا كعصف من الغبار.

ـ لم نفهم؟!.

نظر إلينا بقنوط وقال.

ـ لماذا لا يبرم معاهدات سلام مع الممالك المجاورة، ويتبادل معها بعثات تدريس المعرفة وصنع أدوات وابتكارات علمية لرفاهية الشعوب، واتفاق بتقليص الصناعة الحربية تمهيداً لإزالتها، فقط الاحتفاظ ما يحافظ على أمن البلاد، وتشجيع كل مسعى وبرنامج يجعل البشرية سعداء.

وبعد فترة صمت.

ـ وبذلك حقق المرتجى.

ثم شملنا جميعاً بنظرة محبة وهمس.

ـ وحذا حذو تلك النملة.

***

الصفحة رقم 101:

تخطيطات

الأفكار تتوالد في الذائقات بصور عديدة، وخصوصاً في الإبداع الأدبي والفني، وتتخذ لبوسها التي تجسّد ماهياتها، فهي تكون مرة على هيئة قصيدة، وثانية قصة، وثالثة رواية، ورابعة مسرحية، وأخرى على هيئة تخطيط أو لوحة،.... الخ، وهذا الأمر يتشكل عادة في طويتي الرابضة تحت القحف، فتكون أحياناً على شكل:قصيدة، أو قصة قصيرة، أو قصة قصيرة جداً، أو رواية، أو مسرحية، ولكنها أحياناً تتمرد تينك الأفكار على تلك الأجناس، وتبقى تتجول في حشايا الذاكرة على شكل تهويمات تكون الخطوط المتزاحمة، المتشابكة، المتقاطعة، هي الأجنة الرئيسية لقوامها الحائرة الباحثة عن هويتها، فتنبلج، وكما الفجر البهي، على شكل خطوط متشاكلة، متعانقة،متآصرة، متماهية، لتعلن ميلاد الصبح المشرق المنير، لتتجسد على القرطاس على هيئة رؤى تترجم ما تطلق به الذائقة، وأبت أفكاري– الآن –، إلاّ أن تكون على شكل هذه التخطيطات.

الشجرة
الأم
الضاحكة أبداً

إقسام ما فات

نوح ... فنار .... مدن ...

غبار ... نسيان ... سديم ...

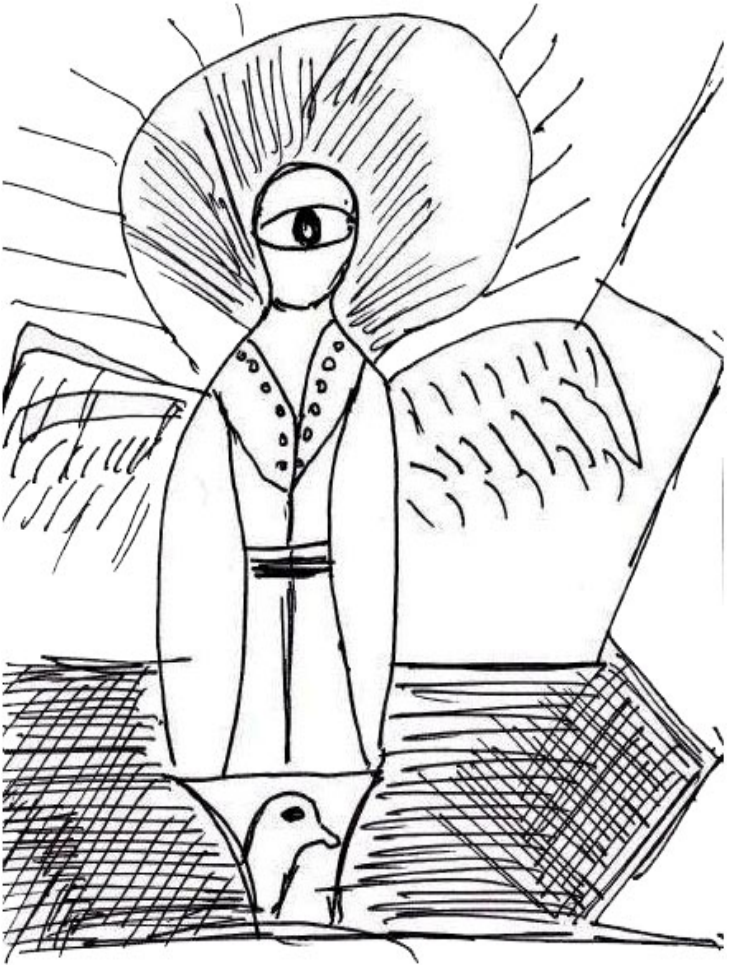

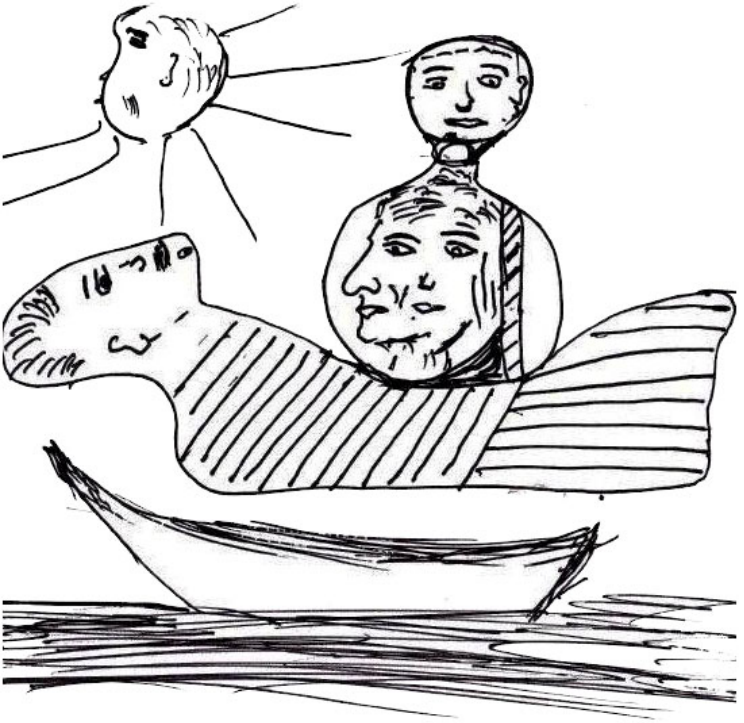

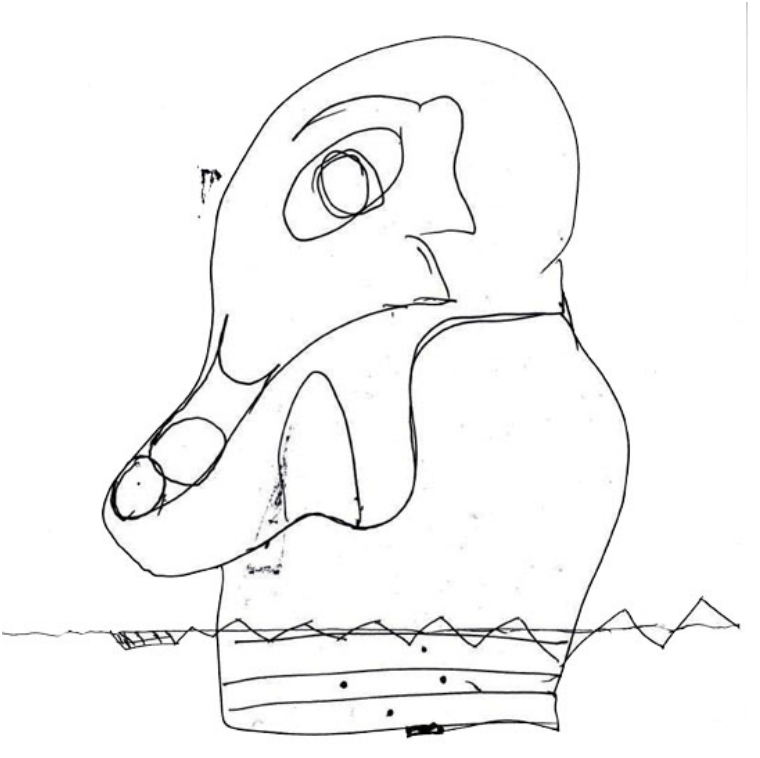

أُمنيات مؤجلة

تبحث عن ذواتها

و..... سمعت همساً ذا نبرة طفولية حادة آمرة أسرة في عمقها.

ـ إغمض عينيك ولا تفتحهما أبداً.

وإزاء هذا الأمر الحاسم فعلت ما أمرني به، أمرني بنبرة رقيقة.

ـ إسحب شهيقاً عميقاً.

امتثلت لأمره، جاءني الصوت الحالم.

ـ إطلقه.

فعلت، سمعت صوته الودود.

ـ من الآن فصاعداً إفعل هذا.

وبعد فترة قصيرة خلتها الأبدية، شعرت بها أن ثمة أشياء تدخل بصيرتي، أشياء تشبه صوراً أو رؤى أو أحلاماً تتقاطر في سجل أو صحف ما في رأسي، وتنتظم على هيئة ما، وبغته... أبصرت وجه الصبي وهو يقتعد مكاناً أشبه بالرباب الأبيض في سماء زرقاء صافية وفي يده شيء ما، كإضبارة أو دفتر صغير يضيء كما الشمس في رأد الضحى، كان يجلس على العشب وحوله قطيع من الحملان البيض، وبين راحتيه أصغرهم، وترنّق حول هامته أطواق من الحمائم وهي تهدل ترتيلة خاشعة، ومن عينيه تنهمر قطرات ندى أرى في صفائها صورة وجهي المضيء، تصادى صوته الرقيق.

ـ الآن سترى أخيراً ما تبحث عنه.

وقبل أن أنبر ببنت شفة، قال بصوت طبقاته ناعسة محبة آسرة.

ـ أبصر الآن...

و..... أبصرت صاحب الصورة في مقدمة السجل أمامي تتحرك عيناه ويتخذ وضع الحكواتي، يبسط أمامي الحوادث التي عاشها متسلسلة كشريط سينمي ..... يقول:

[للمرة الثالثة أراه من حجرتي في أعلى الجبل، خلال فترة واجبي الذي يبتدئ منذ التحاقي من الإجازة الدورية وتوقلّي الشعفة بصعوبة مكاتفاً حقيبة تعلن عن رائحة الخبز المحمص المحشو بالجبن الأبيض والكليجة وقطع السكاكر وحلاوة «من السما»، والعروق المقلية، وأتسلم مهمتي كراصد يترقب حركات... العدو... بمفهوم الحرب، و... الصنو... بمفهوم الإنسانية، الذي يتصّقر على قمة الجبل المواجه، ويتقاسمنا السفحان والوادي العميق الذي تتقبعّه تلال متعددة تغطي سهول مثقلة بالشجيرات... كأرض حرام، الذي تجعل من مهمة المراقبة دقيقة تتطلب الحذر والانتباه، وتكون كوّة المراقبة المحفورة في جدار الحجرة حرزي الحريز، ووسيلتي الوحيدة بحسب العين الباصرة للإتصال بالفضاء الذي أسميته مجازاً، إن قمة الجبل الذي أتـحّصن به هو الولادة، وقمة الجبل الذي يقابلني والذي يتحصّن به الآخر هو المنتهى، والتلال والسهول والأحراش والأشجار والشجيرات والينابيع التي تنفرش بزهو ونسغ الحياة تمور في عروقها هي ما بين المبتدأ والمنتهى، فإنه لعمري عالم افتراضي متأرجح ينحاز نحو المبتدأ النسبي لكلينا، أنا والآخر الذي يتربص بي وبمن تمور الحياة في عروقهم في المواضع المتسترة بباطن الأرض والذين مصيرهم معلّق

بخيط متحلق على جيد انتباهي ويقظتي ورصدي الدقيق، ووسيلة هذه الديمومة الحياتية المرتجاة هي جهاز الإرسال الصغير الذي يجلس على صندوق الذخائر الفارغ الذي حين أخبرهم من خلال الحاكي بالمفردة.

ـ لا تبدل.

أشعر أن الراحة والأمان تستشري في الإبدان المترقبة خلف جبلي المنيع مثل نثيث مطر ناعس بعد انقطاع وامحلال السماء والأرض.

و... للمرة الثالثة أراه من حجرتي وأتيقن أنه من الطرف الآخر، وأنه جريح يحاول أن يزحف صوبي بعد أن فقد حاسة رصد الاتجاهات، فعوضاً من أن يفعل هذا ووجهته الطرف الآخر، يحاول بكل ما يمتلك من قوى باقية أن يأتي إليّ، ومن خلال منظاري وقناصتي كنت أستطيع أن أجندله برصاصة واحدة وأنهي حياته، ولكني كنت مؤمناً تماماً بقول أبي الذي يقترب من أقوال الحكماء: (**لا تبادر إلى القتل، إلاّ بعد أن تفقد كل السبل المتاحة للدفاع عن نفسك، وأنه هو الخيار الأخير، وحاول قبل ذلك أن تعطّل فيه قدرته على قتلك.**)

فتسلقت من خلل عين الناظور أتملى تفاصيله... كان وجهه مخضّباً بالدم، ويزحف بضنك وإعياء شديدين وقد امتدت ذراعه نحو فخذه الأيمن الممزق بنطاله، وقد شده بقوة بقميصه تفادياً لفقدان المزيد من الدم، وبدا بياض عظمة فخذه المتهتك جلياً، تسلقت عابراً صدره نحو وجهه ثانية، كانت تفاحة آدم ترتفع وتهبط بسعار، وشفتاه مفتوحتين

تستجديان الماء، وشواظ الظمأ يقدّد روحه، وكفه اليمنى تظلّل جبينه متقيّة صهد الشمس المجنونة، ثم ترتخي ملبية نداء الوهن والإنطفاء، فينكفئ مستلقياً على ظهره ناظراً السماء الملبدة بأسياخ السعار بنظرة عتب عاجز ثم يرتكن جسده نحو الصمت والسكينة، أحوّل عين الناظـور نحو قمـة الجبـل المقابل، ثم أنحدر متقصياً الشجيرات والنتوءات الصخرية بحثاً عن متسللين، أو ربما مفرزة طبية لإنقاذه، وقلت لنفسي لو حدث هذا فأني لن أعطي أية إحداثيات للخلفيات،كي يستمكنوهم ويقصفوهم، أبحث كالمستجير بالرمضاء من النار، وربما يحدث لأول مرة مذ وضع تجار الحروب النُظم والآليات والتفاصيل التي تشير جميعها للاحترافية في إفناء البشر المساكين بعضهم لبعض من أجل أن يعيش من تفننوا بإخراجها مرتاحي البال، أن لا أرصد و أستمكن أية حضيرة تحضر لا لإسعافه حسب، بل لسحبه ووضعه في عنق زجاجة تفضي إلى عالم الحياة من جديد، وتدور عدستي بإلحاح وتدور معها عيناي، دون جدوى، فالغسق القادم الرائق المطلّ بظلاله المهيمنة في الأودية وحذاء سفوح الروابي والتلال يضم الكون المتمثل بالجبلين والوادي الصامت الحزين، وما يفضي خلف الجبلين من عوالم زاخرة لأناس يترقبون الآتي المجهول ويحلمون بنومة رخية في بيوتهم دون التوجس مما تحمله ساعاتهم القادمة من دلالات المجهول المحزّز بأمائر الزوال،.... لا أحد يجيء كي ينتشل هذا الرجل ويحرره من أصفاد الموات المتسللة إلى جوانحه ونوابضه ومشاربه، فقط الظلال المتطاولة بفعل هرب طلائع الشمس والركون في مرابضها في أقاصي

الغرب، وهسهسات الزواحف وهي تأوي إلى جحورها، والشقشقات اللجوجة للطيور الواكرة إلى أعشاشها المرّنقة في قمم الشجيرات، هي التي تشيّع هذا الجسد الهامد إلى عوالم، أما أن يستيقظ عليها من جديد وألم جديد، أو في رحلة مأمولة إلى عالم هيولي تفيض منه اشارات تقف على النقيض من اشارات العالم الأول، فتعاظمت الرغبة في أعماقي على اجتراح الفعل الخارق، وإخلال التعليمات التي تحتّم علي بعدم مغادرة غرفة الرصد إلاّ على جثتي، فقررت أن أدخل في دائرة الجنون، فرفعت السماعة وناديت، فتلقيت الإجابة، فكانت رحلة الجنون.

ـ ثمة جريح في الوادي.

ـ نحن لا دورية لنا.

ـ إنه منهم.

ـ هل تيقنت أنه جريح؟

ـ نعم، إنه يحتضر.

ـ دعه لمصيره.

ـ سأنقذه.

بعد صمت قصير، رعد الصوت من الجانب الآخر.

ـ أأنت مجنون!!!.

ـ إن كان هذا الأمر جنوناً، فأنا أتفاخر بجنوني.

ـ لا تغادر مرصدك..... إنه أمر.

ـ إنه بحاجة إلى المساعدة.

ـ دعه وشأنه، وراقب جيداً، لعلّه طعم من الأعداء.

ـ بعد ربع ساعة، إن لم تتلقوا إتصالاً مني، إرسلوا أحداً مكاني.

ـ لا تفعل يا مجنون.

ـ سأنقذه.

ـ ستُقدم إلى محكمة عسكرية، بل لا يحتاج الأمر إلى محكمة عسكرية، بل سنحاكمك ميدانياً وقد تُعدم رمياً بالرصاص.

ـ لن تثنيني سيدي، إنه بحاجة إلى المساعدة.

ـ هذا قدره،.... إنها الحرب.

ـ سأقفل الجهاز الآن، أنا آسف سيدي، هكذا أفهم الحياة، وداعاً.

وأقفلت جهاز الإرسال، فكرت بكلام الضابط، تُعدم، قَدَره، طُعم، جنون، محكمة عسكريةً، رمياً بالرصاص.... أجل أن الرغبة التي تلبستني وهاتفت الآمر من خلال هيمنتها هي محض جنون عارم، والجنون... كل الجنون أن أغامر بالخروج من المرصد وترك الأجهزة التي بوساطتها أديم الطمأنينة والتدرع بوشيجة البقاء من خلال درء خطر الأعداء والتشبث بأهاب الحياة لكل البشر اللائذين خلفي في فجاج الجبل، والدرجة العليا من سلّم الجنون أن أفعل هذا تلبية لرغبة غير منطقية متمثلة بمحاولة خطيرة بإنقاذ هذا الجندي الجريح الذي تدل هيئته وسماته ووجهته التي أقبل منها أنه من الأعداء، وربما كان في مهمة مستحيلة للإجهاز عليّ وتعطيل أجهزة الإرسال واستقدام قوة

من الأعداء للإجهاز الخاطف على قواتنا المطمئنة بوجود عين راصدة لا تقل إبصاراً عن عين الصقر، والتي بكفاءتها وحذرها ويقظتها يلوذون في مواضعهم بعين الاطمئنان، ربما يتوارد هذا الاحتمال، أو أنه ملّ هذه الحرب الحمقاء الطويلة فآثر أن يهرب منها إلى أي مكان حتى أن اقتضى الأمر إلى أقفاص الأسر عند العدو،ربما يتوارد هذا الاحتمال أيضاً، وربما «إندار» رأسه بعد أن ذهب إلى الخلاء المنفرش المنبسط لقضاء حاجة ملّحة، واختلطت عليه الاتجاهات فتوجه نحوي، وخاله صحبه أنه يخونهم فأطلقوا عليه، ربما يتوارد هذا الاحتمال أيضاً، وربما.....، وربما.....، والاحتمالات الواردة كثيرة، واليقين المتيقن هو القرار الذي اتخذته مهما كانت العواقب: أن أنقذه.....، حتى لو دفعت ما تبقى لي من وجيب النابض بين أضلعي ثمناً لهذا الفعل الذي يفسره ويستشف جماره المنظرون الرواقيون تفاسير شتى لا تصب في صالحي، ومهما أولوا واستنبطوا وتكهنوا واستنتجوا فإنهم لن يبلغوا شأو العمق المعرفي الذي بلغته صرخة الفيلسوف الفذ إفلاطون حين تصادى صداها آماداً غير مجلوة في كنه الزمان والمكان بأن: (**الأموات وحدهم من رأوانهاية الحرب**)، فلتكن التنعم برؤية مطاف هذا القدر العملاق الموضوع على أثافيَّ تصطلي بلظى نار ساعرة مسعورة تغذيها سواعد كثيرة لرجال مقنّعين بأقنعة متعددة تفترق في كل شيء ما خلا هدف واحد هو إذكاء أوار الحرب وإدامة إصهار أجساد وأرواح أناس أبرياء لا ناقة لهم فيها ولا جمل، تلقيها إلى أوار وغليان ذلك القدر العملاق أكفْ وأيادٍ وسواعد تتكاتف وتتنرفن مع الأقنعة

تينك لاستدامة الغليان والإصهار، وأنا سأضّحي بكل ما أملك كي أعطّل ولو بشكل جزئي لا يُلحظ سريان هذه المعادلة البشعة حتى لو استدعى الأمر أن أكون أحد القرابين المعارضة لسَرَيان هذا الفعل المجنون والمعادلة المكرسة،أن أحاول بكل ما أمتلك من إرادة لليّ تلك السواعد وفك تعاضد أصابع الأكف ونزع الأقنعة من الوجوه بمسبار الحقيقة والتضحية بالروح كي ينكشف كل شيء وتنتهي الحروب وتجار الحروب، من أجل أن اترّسم وأدّون للعالم كنه فصول هذه المسرحية المقيتة التي استهلت في توطئتها بالشقيقين الأولين وواقعة القتل الأولى، مروراً بالكثير من فصولها التي ما أن تُسدل ستارة نحسبها النهاية حتى يبدأ فصل جديد ومُخْرِج جديد يتقن عرض المسرحيات التي تتحدث عن ركيزة أساسية في موازنة الحياة بحسب وجهة نظره ونظر الأقنعة التي تعاضده، المتمثلة بالحرب وليس الحب، وهكذا دواليك، فصل يعقب فصلاً في مسرحية لا نهاية منظورة لها.

كيف انتظيت سلاحي الأخير المتمثل بقنينةالماء؟، وكيف حشرت في جيبي صمونة وخيارة وقطعة جبن مثلثة؟، وكيف ركضت أو مشيت أو زحفت؟، وكيف أمسيت جنبه؟، لم أستوعب ذلك، بل في هنيهة جَلدْي لذاكرتي وحواسي بصولجان التذكر والتسّمع والرؤى والتلّمس والتشّمم والتوقع علهم يدلوني على الصورة ما زودتني كلها على حدة أو مجتمعة بأي شيء، فوظفت كل أحاسيسي خشية ضياع الوقت نحو ذلك الكيان الآدمي الممدد على بطنه، وعيناه تبحلقان بي بهلع، وشفتاه تلهجان...

ـ لا تقتلني..... أرجوك.

ومد كفه بصورة رجاء وتوسل لا مثيل لهما، ابتسمت له وهمست بلغته التي أجيدها تماماً.

ـ لا تخف.

كرر الهمس.

ـ أرجوك.

فلتت الكلمة من أهراءاتي التي أحمّمها كل يوم برشيش المحبة.

ـ لا تجزع.... صديقي.

بان الأمان في محياه، ونطق كلمة مؤطرة بحروفها، وبتساؤل عبق بالذهول لهج.

ـ صديقي!!!؟؟؟.

أومأت إليه بابتسامة ساحرة.

ـ أجل.... صديقي وأخي.

أجال عينيه في قمتي الجبلين ثم أعادهما إليّ وقال.

ـ نحن عدوان.

أجبته بنبرة ودودة.

ـ نحن لسنا عدوين قط، ولن نكون.

وبعد صمت قصير همست وكأني أحدث نفسي.

ـ نحن أوراق لعب.

سألني مذهولاً.

ـ أوراق!!!.

أكدت.

ـ أجل... أوراق قمار.

فتح فمه ببلاهة، فاستطردت.

ـ يلعبون بنا وتمتلئ جيوبهم وكروشهم، وفي النهاية يلقون بنا في سلة المهملات.

وقبل أن تّند عنه أي رد فعل، قلت بصوت خفيض.

ـ مارك توين.

سألني.

ـ هل هو آمرك؟

رغم توقعي بأنه ربما في بلدته التي جيء منها كي يحارب، ليس أكثر من فلاح لم يتعاط التعليم والمعرفة، ولكني أردت، وهي رغبة تتعاظم أن أوصل إليه رسالة، ونحن في وضع يحسد عليه في تفرده وغرابته وخطورته.

ـ مارك توين حكواتي.

فتعزز يقيني من صحة توقعي، إذ قال.

ـ حكواتي المقاهي.

أجبته من خلل إحساس آني ألاّ أظهر سمة التفكّه الساخر.

ـ نعم صديقي.... حكواتي المقاهي.

واستطردت.

ـ مارك توين يقول: الحرب هي قتل مجموعة من الأغراب الذين لا تشعر نحوهم بأي عداء، لو قابلتهم في ظروف أخرى لقدمت لهم العون أو طلبته منهم.

وبعد صفنة ليست بالطويلة، ندت عنه كلمتان.

ـ صحيح جداً.

فشملني شعور منعش بأن رسالتي وصلت إليه، فجلست وأركنت رأسه الجريح في شرخ بسيط في الجانب الأيمن من مؤخرة جمجمته على حجري، أنّ بتوجع ثم تراخت قسمات وجهه الأصفر الحائل الغائض لكثرة ما فقد من دم من الجرح الفاغر أعلى فخذه، عمدت إلى قنينة الماء وفتحت سدادها وأنشأت أدلق قطرات من الماء الذي شفطته روحه قبل فمه، وكلما انتهى من دلق القطرات المتعاقبة إلى جوفه بان التورد على خديه وانتظم وتهاود شهيقه، وعيناه تمطران مزناً من شكر ومحبة لن تقدر كل الأوراق التي يسّطرها الروائيون والقصاصون والشعراء، وكل من يمتهن إخراج الرقوق السينمية، ترجمة الفيض الإنساني الباذخ الذي تزّخه حواسه الألف وليس الخمس أو الست، وحين عادت إليه روحه، سألني بصوت خفيض محب.

ـ لِـمَ تفعل هذا...؟

ومن خلل ضحكة عفوية عميقة أجبته.

ـ أترجم قول الحكواتي مارك توين إلى فعل حقيقي.

أجاب بنبرة قريبة من إقرارٍ بذنب.

ـ اني عدوك.

ـ هم جعلوك هكذا.

بعد صمت وعيناه تعاينان أصابعي التي قطعت الصمون والجبن بمهارة وحشوت بها فمه. قال.

ـ أجل... ما تقوله صحيح.

واستطردت.

ـ أنا وأنت أخوة من نسل آدم وحواء.

وغب صمت أقرّ.

ـ كلنا أولاد آدم.

من خلال ضحكة عميقة هتفت مؤكداً.

ـ وحواء.

وأخيراً بانت ابتسامته كشفق نهار جميل.

ـ صدقت.

قلت وأنا أحرص أن تخرج كلماتي جلية.

ـ لهذا جئتك أغالب وأحاجج رغبة الأخ الأول الشريرة، لا لكي أصرعك، بل لأنقذك.

قال.

ـ لم أفهم!؟.

سألته وأنا أجتهد في تسهيل الأمر.

ـ هل تحس اني الآن عدوك؟

تناوب في معاينة قنينة الماء في يدي اليمنى والصمونة والجبنة في يدي اليسرى، ثم حوّل طرفه متشرباً بزخات المحبة الهاطلة من عينيّ، فأجاب بصوت يتقطر شهداً.

ـ بل أنت أخي.

وتسللت أصابعه بصعوبة جمة نحو كفي، وعندما تشابكت أصابعنا تترجم حقيقة الأخوّة الصادقة الدافئة اشتعلت الحمم حولنا، قذفت نظرة عاجلة نحو القمة المقابلة، كان الرصاص يزخ، التفت إلى مرصدي، كان الرصاص يزخ، تضامنت الرصاصات الناثة من الطرفين المتضادين في لحظة مجنونة غير منطقية لاصطيادنا نحن الاثنين معاً، أخفضت رأسه نحو العشب، وألصقت وجهه بالعشب الذي يجاوره، والتقت عينانا، رأيت في عينيه رحلة حياتي منذ الصرخة الأولى والشهيق الأول، وحتى هذه اللحظة، لحظة تجلي الروح والجسد، كان يحدّق بعيوني بدهشة. سألته.

ـ ما بك؟

أجاب وصوته يكوّن مع أزيز الرصاص المتكالب لحناً غير موزونٍ.

ـ أرى حياتي بتفاصيلها في عينيك.

إقترب جسدانا في خطوة قصيرة هي انقلاب الجسد حول محوره، وضممنا كفتينا مترجمين خلاصة المحبة الإنسانية الصادقة، أنهضَ،

بالترادف مع حركة نهوضي، جسده الوسنان مشكلاً زاوية قائمة مع نصف جسده السفلي، مثلي تماماً، مد ذراعه واحتضنني، تماهينا في آصرة، عجزت كل الإطلاقات التي اخترمت جسدينا من فك تواشجها، وبعد أن صار جسدانا منخلاً تستطيع من خلال ثقوبها رؤية الوجوه الشمعية التي ترمي الحمم، آنذاك فقط، إنسل من كياننا طفلان متماثلان في السمات والتفاصيل، يرتديان ثياباً بيض بلون الثلج البكر حال انثياله من السماء على شعف الشاهقات من الصخور، وتتوجنا هالتان أكثر نصوعاً من البلور، وحلّقنا،..... حلّقنا،.... حلّقنا إلى الآماد القصية، حيث ال..... !!!؟؟؟].

و..... سمعت همساً ذا نبرة طفولية حادة آمرة أسرة في عمقها.

ـ إفتح عينيك.

وإزاء هذا الأمر الحاسم فعلت ما أمرني به، أمرني بنبرة رقيقة.

ـ إسحب شهيقاً عميقاً.

امتثلت لأمره، جاءني الصوت الحالم.

ـ إطلقه.

فعلت، سمعت صوته الودود.

ـ حاول أن تسترخي.

وبعد فترة قصيرة خلتها الأبدية، شعرت بها أن ثمة أشياء تغادر بصيرتي، أشياء تشبه صوراً أو رؤى أو أحلاماً تتقاطر منسلة من رأسي، وبغته... أبصرت حمامة خضراء، أدكنة الخضرة، تجلس على غصن شجيرة زيتون تنظر إليّ بعينين ناعستين صديقتين، وللحظة، وأنا

أنفض رأسي محاولاً احتواء كنه وضعي، اكتشفت فيهما عيني الصبي، وحين وصل شكّي شطآن اليقين أسلمت الحمامة جناحيها للفضاء واختفت خلف شعاف الأشجار التي تحيط بي في تلك الغابة التي لا تخطئها عيناي وأفضّ مغاليق مجاهلها حتى وأنا مغمض العينين، ومن المدخنة المهجورة حلّق زاغ يبحث عن قوته الصباحي فتبعته عيناي، طار عالياً ثم تهادى فارداً جناحيه في سكون تام فصار ينخفض حتى اختفى في جوف عربة قطار حائلة أحيلت إلى التقاعد منذ زمن بعيد فغدت مأوىً للطيور والقطط، أعدت نظري أتملى الأشجار التي نفضت عن ثيابها الخضر غبار الكرى بانتظار أشعة الشمس لكي تبدأ عملية انتاج الأوكسجين، هديتها النفيسة للخلائق برمتها، ثم مالت عيناي نحو السِفر الذي ما أتممت كل فصوله الساحرة، مررت أناملي أجلو انعكاسات لون غلافه الذي بدا ينقاد إلى أولى شعاعات الشمس الطفلة التي تميس الأشياء على خجل، وأحاول أن أجد إجابة للسؤال الذي برق في خاطري، حول كينونة ما عشته تينك الساعات المترعة بالاكتشاف الفذ، والمتعة الروحية الفياضة: هل هي حلم نادر...؟ إن كانت كذلك فإنه حلم لا حدود لجماله أتمنى تكراره على الدوام..... هل هي تحرر المخ من زنزانته، الذي غالباً ما يتحدث العلماء عنه باعتباره حالة فسلجة فيزيائية كيميائية معقدة تجعل المخ يتحرر من شباك نسيج العنكبوت حالما ينام الإنسان؟، إن كان كذلك فإن انقيادي بكليتي نحو صبي باهر الحضور، تؤكد لي أني كنت أمتلك مخي بالكامل وأنا أنسحل كما في الحكايات الأسطورية خلف ذلك الناسوت الغض

المضيء بحضوره الأثيري... هل هو نوع من الرؤى..؟ فالرؤى تُصَّنف في المعاجم بمامعناه (النظر بالعين، أو بالعقل، أو بالحلم) وهي بالحصيلة النهائية تتشابه مع الأحلام وإن كانت أكثر سمواً منها،.... وهل هي ضمن خانة الميتافيزيقيا...؟، أياً كانت تسمية ما عشته تلك الليلة يكاد لا يصدقه العقل، ولكن ما يناقض ويجعل حجة ذلك العقل الغير المصدق هو،.. السجل الذي يحتضن أناملي بحنان الأم المرضعة،..وبناء عليه يمكن أن أؤكد أن ما عشته تلك الليلة السامية هي شيء لا يمنطقه العقل الأرضي الوضعي، وأنه من الأشياء التي لا يمكن أن تصّنف إلاّ بتلك الأخبار التي تتحدث عن أناس يفارقون الحياة ثم يعودون إليها، فإذا كان هذا منطق اللامعقول واللاواقعي فإني ـ والحق يقال ـ عشت عوالم عجيبة، أستقصي تفاصيلها وروحي تقدّها نفس الهواجس التي ألمت بذلك الرجل الذي دخل ذات زمن استثنائي مدينة دلمون ثم خرج منها بعد ساعات مصاباً بمرض اسمه (عشق اللامنطق) وهو يتحدث بلسان قيس بن الملوح وجميل بن معمر، عن ليلى وبثينة، وعن كنه دلمون التي عاش لحظات تدلهه وهو يقول للناس الذين أحسوا أنه أصابته لوثة في رأسه، وهو يؤشر بذراع ممدودة مرتعشة ولسانه يقول: إنها هناك خلف تلك الأكمة الرملية.... التي يمتد خلفها بحر لجب شاسع... ولكن العالم الذي استضافني، وموقن أنا من هذا الأمر تماماً... لا يمكن أن يقارن بدلمون، ولا بيوتوبيا توماس مور، ولا بكل الكتابات التي تنظّر للعالم المثالي الذي تؤطر وتحدد تفاصيله جمجمة آدمية... بل أن ما عشته أنا لَهوَ أجّل

وأقدس وأطهر من كل تلك الجنان والفراديس التي اخترعتها أخّيلة أنسان أرضيَ فانٍ، وأني خرجت ـ وأنا أجد نفسي مقتعداً مصطبتي العتيقة ـ من حنايا حياة سامية طهور، وإني محظوظ جداً لأني عاينت ما لا يمكن قط لكينونة بشرية معجونة من صلصال وماء أن تتشرف بمعاينته، ويقيناً أن عودتي إلى الغابة، ومن ثم المدينة إرادة سامية.....

وأغمضت عينيّ محاولاً استدعاء تفاصيل تلك الساعات التي كانت ترشّ وتطّهر ذاتي فأحسست بصفاء روحي وصرت أبصر ذاتي شفيفة نقية صافية، فنهضت أنفض عن غلالة روحي سلة التساؤلات، وكاتفت الطريق الترابي الذي يفصل بين طرفي الغابة العتيقة المرتهنة بسمة الإهمال والنسيان، ووجهتي بوابتها المخلوعة المفضية إلى سكة القطار البينولوبية، ثم تلقفني الشارع المزّفت النافض للتو عن روحه أمائر الرقاد، وخطاي تجلد سواد زفته بحِيرة وتساؤل مسطول رأى ما لا يمكن أن يُرى، الشارع شبه مقفر من العربات والمارة، وقدماي تترسمان بحذق ومهارة ودراية خطى مسيرتي نحو هدفي، بان الزقاق المفضي إلى دارتي أشبه بذلك النفق الذي في نهايتيه التضادان، ففي الأولى بوابة من قضبان متضادة متقاطعة تشكل كيانات مربعة وموشورية يتصاخب خلفها الكواسر الساغبة الهائجة، وهي تتملى المفتاح الضخم المتدلي من سلسلة تنثال من أصابعي، وفي الثانية وعلى منتصف ميدان بيضوي تحده مدرجات شاهقة تحتلها وجوه مصابة بهستيريا الصراخ، أشباه أبدان آدمية شبه عارية سوى من أسمال بالكاد تخفي الحقوين، وعيونها مصوبة بالتناوب على الأشداق الحيوانية

الفاغرة الجائعة والمفتاح الذي في يدي، وبغتة يسود الصمت بانتظار المفتاح وهو يفتح... وعلى حين غرة تحولت الأجساد شبه العارية إلى حمامات بيض بأجنحة مفردة تسحر الفضاء ببهائها، وهي ترسم فوق هامتي طوقاً بارق الضياء فأحلّق بأجنحة تماثل أجنحتها وأطير فوق الإسفلت تزفنّي الصنوج والدفوف والقيثار، وأولجت المفتاح في مزلاج الباب، لأتفاجأ بزوجتي والكرى لا يزال يعارك أجفانها، فتحت فاها مذهولة.

ـ أين كنت طيلة الليلة الماضية...؟

أطوّق هامتها براحتي، أحدّق في عينيها، تغضّ نظرها حياء ورهبة بفعل الضياء الذي اخترم روحها فتبدت في حالة خشوع عميق، أتخطاها قاطعاً الممر نحو غرفة الاستقبال ممغنطاً بفعل نفحة بارقة معفرة ببراءة الأطفال، فأصير شفافاً كقطرة طلل متشكلة للتو، تحيط بي الحمائم، أدفع بابها براحتيّ، استقبلتنا من فضاءها كراديس أخرى من حمائم بيض، تقودني قدماي نحو صورة أبي أعلى الحائط، يتصادى عزف هادي ونشيد بنبرة طفولية آسرة، منبعه صورة أبي، أنظر لأجد صبي ليلة أمس بوجهه الصبوح وعينيه البارقتين النافذتين وشفتيه الورديتين الممتلئتين وغمازتيه النابضتين بالحمرة، الناطقتين بالحياة، تنقاد روحي إلى هذا الصداح والنغم الشجي، وقبل أن أشارك مع الكورس من الحمائم التي تسمرت وعيونها منقادة صوب عينيه، سمعت صوتاً أعرفه..

ـ يا رائحة الحبيب..

فأهتف بذياك الجذل الطفولي.

ـ جدتي!!؟؟.

وأستدير وبي رغبة أن أسابق الضوء للوصول إلى صورتها التي تقابل صورة أبي في الحائط المقابل، أبصرت ذلك الثوب الذي كان يبّز لون الليالي الشتائية الحبلى بالغيوم السود والولودة بالمطر المدرار على وجهها الموشوم تحت الشفة السفلى بشريط من النجمات ثمة شال يماهي الثوب في عتمته، وقد استحالا معاً: الثوب والشال إلى غلالة بيضاء يكلّلها شال أبيض، ناصع البياض كنديف ثلج هبط للتو، أهتف.

ـ جدتي، إنه..

وأستدير نحو صورة أبي لأجده وقد ارتسمت ابتسامة تحت شاربه الكث.. وأسمع صوتها بجرسه الأمومي الدافق.

ـ أعرف يا ولدي.

وبعد صمت ناتر خاطف.

ـ نحن معاً.

ثم تومي بعينيها البارقتين، وبنبرة منغمة خرافية في عذوبتها، همست.

ـ نحن هناك....

***

صيف

2016